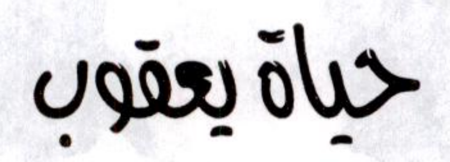
حيـــاة يعقوب



ف.ب. ماير

ترجمة
القمص مرقس داود

مكتبة المحبة



تأليف

ف. ب. ماير

ترجمة

القمص مرقس داود

٢/٨

مكتبة المحبة



مقدمة المعرب

وهذه حلقة أخرى من هذه السلسلة المباركة، سلسلة حياة أبطال الإيمان فى العهد القديم والعهد الجديد، سمحت لى نعمة الله بأن أعرّبها منذ ربع قرن تقريبا، وشجعتنى مكتبة المحبة المباركة على بعثها من رقادها وتقديمها للنشر الآن.

وإننى أتقدم بالشكر القلبى الخالص لهذه المكتبة، متوسلا إلى الله أن يبارك فى كل جهودها فى هذا الميدان من الخدمة الذى اختارته، وهو نشر الكتب النافعة للكنيسة.

ونحن عندما ندرس سيرة يعقوب، أبى الآباء، نجد أن حياته فى بدايتها أقرب الشبه لحياة الكثيرين منا، بل إنها تمثل الطبيعة الساقطة التى ورثناها من جدنا الأول آدم.

وعندما نتقدم فى دراسة سيرته، ندرك بأن النعمة الإلهية الغنية، عندما تلمس قلب أضعف إنسان، تستطيع أن تحوله إلى شخصية قوية جدا.

إن نفس النعمة الإلهية التى عملت فى يعقوب وفى إبراهيم وإسحق، وفى موسى ويشوع، وفى داود وسليمان، وفى إيليا وأليشع، وفى بطرس وبولس، لا زالت مستعدة أن تعمل فى كل واحد منا بنفس القوة.

وإننى إذ أضع هذا الكتاب فوق مذبح الله، أتوسل إليه أن يستخدمه لبركة الكثيرين كما كانت الحلقات السابقة من هذه السلسلة.

لإلهنا المجد والكرامة والعزة والبركة الآن وإلى الأبد آمين.

١١ سبتمبر ١٩٦٢

أول توت ١٦٧٩

القس مرقس داود

مقدمة المؤلف

كانت عادة بعض مفسرى العصور الغابرة، إذا ما كتبوا،أن يعتقدوا بأن إخلاصهم لروح الله يدعوهم أن يبيّنوا بأن كل تصرفات قديسى العهد القديم تتفق مع أسمى المبادىء الأخلاقية. وتظهر هذه الحقيقة بنوع خاص فى كتاباتهم عن تاريخ حياة هذه الشخصية الجليلة، موضوع تأملنا فى هذا السفر، فلقد بذلت جهود قوية لتلطيف بعض حوادث حياته، الأمر الذى يصطدم يقينا لأول وهلة مع فكرتنا عن البر.

وهذا ما دفعنى لأول وهلة لإعداد هذا السفر، لقد كتبته موطدا العزم على سرد رواية حياة يعقوب كما هى دون محاولة تلطيف أية ناحية، بل مصورا سقطاته كانتصاراته، ومحاولا أن أظهر بأن كلمة الله لا تتردد فى أن تصف لنا نقائص وضعفات أبرز الشخصيات بسبب الفوائد الجمة التى نستطيع أن نجنيها فى الناحيتين التاليتين:

الأولى:

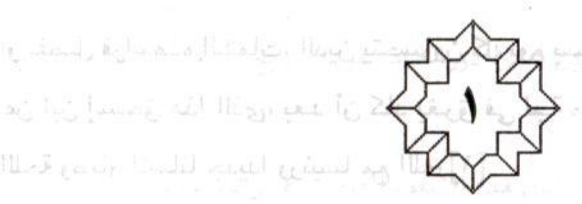
يجب أن تتعلم البشرية بأن محبة الله لا تحدد بما تجده فى الإنسان، فالله يحبنا، لا لأننا صالحون، بل كى يجعلنا صالحين. وهو لا يدهش إذا ما رأى الشر فينا، ومحبته لا تتخلى عنا بسبب خطايانا.

الثانية:

إنها لتعزية كبرى أن نعرف أن القديسين الذين وردت سيَرهم فى الكتاب المقدس كانوا تحت الآلام مثلنا، وإنه إن كان الله قد استطاع أن يصوغ من مادة خشنة كهذه أوانى جميلة، فإنه يوجد رجاء بأنه لن يتردد ولن ييأس من إتمام ذلك معنا نحن أيضا.

وإنه ليسرنى جدا أيضا إذا استطعت بهذا المؤلف أن أبين لزملائى الخدام – الذين يئنون تحت ضغط مطالب شعبهم التى لا تنقطع – كيف يجدون فى شخصيات الكتاب المجيدة ينبوعا لا ينضب من الجدة والتغيير، والفائدة واللذة. ولعله لا يجدى شىء فى إنعاش الشعوب الفاترة الهمم لدراسة الكتاب المقدس، وإيقاظ ضمير البشرية النائم، بقدر دراسة وتحليل شخصيات أبطال الكتاب المقدس وقديسيه.

ف. ب. ماير



المؤثرات الأولى (تك ٢٥)

إن أكبر ما يدعمنا فى مصائب الحياة الشديدة هو الاعتقاد الراسخ والثقة الوطيدة بأن نصيبنا، مهما كان محزنا أليما، قد رتبه لنا الله الذى كان ولا يزال إلى الأبد مقتدرا رحيما. وهو يستطيع بمقاصده الأزلية أن يحولها كلها لخير أولاده الذين يحبونه محبة قلبية.

وردز ورث

هذه رواية قديمة تبدو إلينا، فى ثوبها الشرقى، كأنها بعيدة عنا بُعدنا عن ثياب وعادات أهل الشرق. على أن الحياة البشرية هى هى بعينها، سواء عاشت قبل الصليب بعشرين قرنا أو بعده بعشرين جيلا، سواء ارتدت الثياب الأفرنجية أو التحفت بعباءة العرب، وسواء أقامت فى المدن المتحضرة أو فى بيداء فلسطين الجنوبية ومراعيها الخضراء البهية.

يعيب علينا بعض النقاد شدة اهتمامنا بالتأمل فى تلك الصفحات البالية عن هذه الشخصيات التى تقادم عليها العهد. ومع احترامنا الكلى لهم، نراه لزاما علينا أن نقرر بأننا، بهذا الاهتمام، نتعلم كيف نعيش ونستنشق جوا روحيا صافيا، وندرك الكثير عن طريق معاملات الله للبشر أكثر مما لو تصفحنا صحف الأمس السياسية، أو الصحف الاجتماعية.

إن يوما واحدا فى الحياة البشرية والنظم البشرية كألف سنة، وألف سنة كيوم واحد. فالنفس تستطيع أن تمد يديها من وراء الأجيال. وألوف الأميال لا تستطيع أن تفصلنا عن أعزائنا فيما وراء البحار، وألوف الأعوام لا تستطيع أن تفصلنا عن عزائنا فيها وراء الأجيال،

أو تفصل قراء هذه الكلمات، الذين يتحسرون كل يوم بسبب قصورهم عن تحقيق مثلهم العليا، عن ابن إسحق هذا الذى، بعد أن كاد يغرق فى لجة مكره وخداعه، انتُشل أخيرا من هذه اللجة وصار إنسانا جديدا ورئيسا مع الله.[1]

وهناك أسباب عدة تعطى هذه الرواية أهمية خاصة:

(١) كان يعقوب أبا للشعب اليهودى، كما كان يهوديا مثاليا:

كان اليهود يُكْنون باسم يعقوب، وباسم إسرائيل يلقّبون (إش ٤٤:٥)، والله دعاهم بنى إسرائيل، ونحن ندعوهم إسرائيليين. ونتحدث عن يعقوب أكثر مما نتحدث عن إبراهيم كمؤسس للشعب الذى دعى عليه اسمه. لأنه، ولو كان إبراهيم جدهم الأول، إلا أنه لم يخصهم وحدهم دون سواهم بهذه النسبة. فقد كان مؤسس شعب آخر أقوى وأخصب. فابن الصحراء يدعوه أبا كما يدعوه اليهودى على قدم المساواة. ليس ذلك فحسب، فإننا نحن، أصغر الأمم، نستطيع أن نفتخر بأننا ذرية ذلك البطل العظيم أول العبرانيين[2] الذى دعاه الله خليله. فهو أب كل المؤمنين، ليس الذين من الختان فقط، بل أيضا الذين يسلكون فى خطوات إيمانه الذى أعطِىَ له قبل أن يختتن (رو٤:١٢). ونحن لازلنا نتناسل لنكون الرمل على شاطىء البحر، ونجوم السماء التى رآها فى رؤى الله (تك٢٢:١٧).

أما يعقوب، فقد كان يهوديا مثاليا. فحياته تعتبر ملخصا لذلك الشعب العجيب الذى تجده فى كل مملكة ولا ينتمى لإحداها. ذلك الشعب الذى قد أمدنا بأنفَس قطعة فى الآداب الدينية (العهد القديم)، ومع ذلك، فهم لا يزالون مضغة فى الأفواه بسبب مكرهم ودهائهم ومحبتهم للمال. وهم الذين أمدونا بأسمى المبادىء فى النبل والشرف، وفى نفس الوقت، بأحط

---

[1] (هو١٢:٣) «وبقوته جاهد مع الله»، أو «بقوته رأس عند الله» حسب ترجمة اليسوعيين، أو «بقوته صار رئيسا (أو أميرا) مع الله» حسب الترجمة الإنجليزية.

[2] تُشتق هذه الكلمة من «عَبَرَ» أى قطع نهرا أو عبره، وهو الأرجح. ويظن البعض أنها من «عابر» أحد سلفاء إبراهيم (تك١٠:٢٤؛ ١١:١٤). وقد لقب الكنعانيون ابرآم بالعبرانى (تك١٤:١٣) بعد مجيئه من عبر الفرات إلى أرض فلسطين، فصار هذا الاسم لقبا لنسله، وبه عرفهم المصريون (تك٣٩:١٤ ؛ ٤١:١٢)، وكذلك الفلسطينيون (١صم٤:٦).

المبادىء فى الدناءة والسفالة. هم الذين لعبوا دورا هاما فى التاريخ الماضى، والآن ينتظرون الكارثة النهائية التى تحدد مصيرهم.

لن يستطيع إنسان مفكر أن يتجاهل هذا الشعب العجيب، فتاريخه هو، بلا شك، مفتاح لتعقد السياسة الحاضرة. ولعل فداءه يكون ثمرة لذلك البلاء العظيم الذى بدأ يهز العالم كله، والذى نرى آثاره فى الهزة العنيفة وفى شبح الحروب القادمة.[١]

فإذا استطعنا أن نتفهم حياة يعقوب، أتيح لنا إدراك تاريخ شعبه، إذ أن المتناقضات التى تحير عقولنا فيهم متوفرة كلها فيه. فإنه كان مثلهم أعظم مدبر للمكائد فى عصره. وكان مثلهم عميقا فى روحانيته، قويا وبعيد النظر فى إيمانه. وهذه أعظم كل الصفات، وتؤهل المرء لأسمى المبادىء التى تستطيع أن تنالها النفس البشرية. وكان مثلهم، قضى الشطر الأكبر من حياته فى المنفى، محتملا أقسى الظروف فى الآلام والأحزان. وكان مثلهم، شديد التمسك بتلك الأرض العزيزة التى تملّكه لها مرتكزا على الاتكال على وعد الله، وعلى امتلاكه لبعض مقابر الأبطال الراقدين.

على أن أخلاق يعقوب تطهرت بما جازه من محن شديدة. فإن النيران التى ألقى فيها كانت محماة سبعة أضعاف ما يحمًى للشخص العادى، لهذا فهو يعد فى الصفوف الأولى للمتألمين. وبسبب هذه الآلام، صار مثلا أعلى للقوة الروحية والقوة الأخلاقية. الأمر الذى اضطر أعظم ملوك الأرض فى أيامه (أى فرعون)، أن يحنى هامته أمامه، ملتمسا البركة من يده المرتعشة. وفى نفس هذه المحن الشديدة يجوز شعبه منذ عدة أجيال، ونرجو أن تصفيهم نيران هذه الآلام من كل زغل، وتخليهم من نقائصهم، حتى يتعرفوا على يوسف الحقيقى الذى جاء من نسلهم (أى المسيح) الذى أرسل إليهم هدايا جزيلة، والذى لم يعرفوه إلى الآن، ولكنهم سوف يمثلون أمامه يوما ما يقينا. وحينئذ يشتركون فى مجده (تك٤٥:١٣و١٨) ويكونون «فى وسط شعوب كثيرين كالندى من عند الرب» (مى٥:٧)، وفيهم يتم ذلك الوعد القديم الذى قيل لإبراهيم وأباركك... وتكون بركة (تك١٢:٢).

---

[١] يلاحظ أن هذا الكتاب كُتب قبل الحرب الأوربية العظمى الأولى بزمن طويل، فالطبعة التى بين أيدينا، وهى الطبعة الحادية عشر، طبعت عام ١٩٠٩.

(٢) وكان فى يعقوب أيضا ما يشبهنا من نواح كثيرة:

لقد صدق أحدهم إذ قال: «كان إبراهيم بطلا، ويعقوب إنسانا بسيطا ساكنا فى خيام، كان إبراهيم أرفع من مستوانا ويعقوب فى نفس مستوانا. كانت حياة يعقوب أقرب إلى طبيعتنا المتلونة من عصر الآباء الذهبى.»

١ - إن سقطاته تتحدث إلينا. لقد عرف كيف ينتهز فرصة جوع أخيه الشديد. لقد خدع أباه. لقد قابل مكر لابان بالمكر. لقد عرف كيف يتخلص من انتقام أخيه عيسو.

لقد خلط الدين بالسياسة بشكل مزر. لقد كان أولاده تنمو فيهم روح البغض والانتقام وسفك الدماء. لقد أظهر منتهى الضعف والذلة بإزاء الوالى المصرى البعيد عنه بمسافات شاسعة (أى يوسف)، وأرسل إليه هدية. وأقل ما نستطيع أن نصفه به، هو أنه كان وضيعا، ماكرا ضعيفا. ومن ذا الذى يجرؤ على القول إن نفس هذه الصفات غير موجودة فيه؟ ولكنها قد تكون نائمة فى صدره، منتظرة ما يحركها، لكى تخرج من صمتها وتؤدى إلى أسوأ النتائج. وهى إن كانت الآن نائمة، فليس ذلك إلا بفضل نعمة الله.

٢ - وطموحه يتحدث إلينا. فنحن أيضا لنا أحلامنا التى فيها نرى الملائكة بجوارنا. ونقطع العهود والمواثيق عند ترك أوطاننا. ونحن أيضا، عندما تسود حياتنا المحبة القوية، نستهين بكل الصعوبات. ونحن أيضا، كثيرا ما نعود إلى بيت إيل لكى ندفن أصنامنا. ونحن أيضا، نعترف بأننا غرباء ونزلاء على الأرض. ونحن أيضا، ندرك رعاية الله لأولاده (تك٤٨:١٥)، ونحن كذلك ننتظر خلاص الله (تك٤٩:١٨).

٣ - وأحزانه تتحدث إلينا. فكل حياة لها هجر أوطانها لكى تسير وحيدة. لها الجهاد العنيف للبقاء. وخلع فى فخذها ليذكرها بأزمة شديدة حلت بها. «وألّون باكوت» أى بلوطة البكاء (تك٣٥:٨). وقبر وحيد فى طريق أفراتة يضم جوهرة ثمينة لا تعوض. وابن مفقود كيوسف. ورأس قد ملأها الشيب بسبب تراكم الأحزان. وكثيرا ما امتلأت قلوبنا حزنا بسبب الآمال التى هزأت بنا ولم تتحقق «ولم تَبلُغ» (تك٤٧:٩).

يالها من تعزية نجدها عندما نذكر أن قديسى الكتاب المقدس، الذين يضيئون الآن كالكواكب فى كبد السماء، كانوا بشرا تحت الآلام مثلنا. فإنهم لم يعيشوا طول حياتهم قديسين، ولكنهم أخطأوا وتذمروا وتمردوا مثلنا. وأن أقدس قديسى السماء لم يخلقوا من طينة غير طينتنا، وأنفس أوانى الله لم تُصنع من مادة أسمى من التى نحن منها، والجواهر الموضوعة الآن فى أساس أورشليم الجديدة، كانت يوما ما بشرا مجهولين مهملين لهم نفس طبيعتنا. انظروا إلى الصخر الذى منه قطعوا، إلى نقرة الجب التى منها حفروا، واحكموا إن كان هناك أى تمييز بين أصلهم وأصلكم (إش٥١:١و٢). وعندئذ تشجعوا، لأنه إن كان الله قد استطاع أن يقيم من يعقوب وسمعان بن يونا وغيرهما رؤساء وملوكا، فلا شك فى أنه يستطيع أن يتمم نفس الأمر. قد يكون التأديب قاسيا كالنيران، ولكن النتيجة ستكون مجيدة، سيرن الصوت فى كل الأبدية بتسبيح ذاك الذى «يقيم المسكين من التراب. يرفع الفقير من المزبلة» (١صم٢:٨) ويجعلهم ملوكا وكهنة لله (رؤ١:٦).

(٣) وفى يعقوب نستطيع أن نجد آثار عمل المحبة الإلهية... «وأحببت يعقوب» (ملا١:٢):

١ - كانت هذه المحبة قبل الولادة. قبل أن يولد الطفل كان موضوع محبة الله (رو٩:١١). وقبل أن يتكون أى عضو من أعضائه، رُقمت فى فكر الله، وفى سفره كلها كُتبت (مز١٣٩:١٦). ورغما عن أن الله سبق فأدرك كل مواقفه وكل خصاله وأخلاقه، فإنه قد أحبه. جميل جدا أن نتكل على المحبة التى لا يحدها زمن، بل الكائنة منذ الأزل، لأننا نثق بأنه كما أن محبة الله لم تنشأ بسبب أى سمو سبق أن رآه فى أخلاقنا، فإنها كذلك لن تتخلى عنا بسبب نقص مفاجىء أو خطأ طارىء. إنها لم تبدأ بسبب ما كنا فيه، ولهذا فإنها ستستمر رغم ما نحن فيه.

٢ - وكانت محبة قوية. حتى إن المحبة التى أضاءت حول عيسو، عندما قورنت بها، سميت بغضا «أحببت يعقوب وأبغضت عيسو» (رو٩:١٣)، لأن الله أحب عيسو كما يحب كل

البشر. وهو لا يرفض أى شىء أو شخص خلقه، إنما كان هناك فرق بين درجة حرارة المحبة التى أحب بها يعقوب وتلك التى أحب بها عيسو، كالفرق بين المحبة والبغض فى القلوب البشرية. يضىء القمر بعض الأحيان فى الصباح المبكر، فى نفس الوقت الذى تضىء فيه الشمس، وتظل أشعته منعسكة على كل الأشياء، ولكن المرء يؤكد أن القمر لا يضىء بسبب شدة لمعان الشمس. هكذا كان الحال مع هذين الشخصين. ومن ذا الذى يستطيع أن يخطىء الله؟ فإنه يجب أن تكون هنالك درجات لمحبة الله؛ ألم يوجد بين التلاميذ ذلك التلميذ الذى أحبه يسوع (انظر مت١٠:٣٧؛ لو١٤:٢٦).

٣ - وكانت محبة مؤدبة. كثيرا ما ننظر إلى المحبة نظرة خاطئة. فإننا نظن أن المحبة هى التى تدلل وتلاطف وتمدح، وتجعل من نفسها درعا فلا تهب علينا العواصف. ونحن ليست لدينا فكرة عن المحبة التى ترفض بعض طلباتنا، وتمسك عصا التأديب والحديد والنار، والتى تقرر التأديب الطويل الذى تخلص بواسطته النفس المحبوبة من كل العناصر الوضيعة الزائفة الشريرة. هذه هى محبة الله. «لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس معلمة إيانا[١] أن ننكر الفجور والشهوات العالمية» وهذا ما حصل ليعقوب.

لو أننا سُئلنا عن أى الشخصين كان محبوبا من السماء، لما ترددنا فى اختيار عيسو بتعجل وجهل.

فهنا يقف عيسو الأشعث، القوى العارضتين، رجل الصيد، ذو الشعر الأحمر، مسلحا بالقوس والسهم. ممتلئا بالعواطف الكريمة، محبا لوالده الشيخ، صفوحا لأخيه الذى أساء إليه تلك الإساءة البالغة. وهو قد صار زعيما ذائع الصيت وأبا لعائلة ملكية مجيدة (تك٣٦). وكان سعيدا مع زوجاته وأولاده، فإننا لا نقرأ فى تاريخه عن شىء من تلك الفواجع التى مرّرت حياة يعقوب. وكان غنيا جدا، حتى إنه استخف بهدايا يعقوب ولم

[١] أو «مؤدبة إيانا» حسب بعض الترجمات (تى ٢:١١و١٢) أو «وهى تؤدبنا لننكر النفاق والشهوات العالمية» حسب ترجمة اليسوعيين.

يحفل بها. قويا جدا، حتى إن جماعة يعقوب خشيت بأسه. وكان مستقرا فى أخصب الأرض ينعم بخيراتها، فى الوقت الذى كان بنو يعقوب يرزحون تحت نير العبودية فى مصر. لهذا فإننا إذ نتأمل فى هذه الشخصية، نميل إلى ترديد تلك الكلمات التى فاه بها صموئيل عندما دخل ابن يسى البكر فى حضرته ونقول: «إن أمام الرب مسيحه».

وهناك – فى الاتجاه الآخر – يقف يعقوب، طريدا من بيت أبيه وهو لا يزال فى ميعة الصبا، أجيرا فى خدمة أحد أترابه وهو فى أفخر أيام رجولته، مثقلا بالمتاعب والهموم فى شيخوخته، غريبا فى أرض غريبة فى كهولته، قليلة ورَدية كانت أيام سنى غربته. ورغم ذلك، كان هو محبوب الله. وبسبب هذه المحبة الخاصة كان لزاما عليه أن يحتمل ذلك التأديب الخاص «لأن الذى يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله» (عب١٢:٦).

ليس النجاح الأرضى علامة خاصة لمحبة السماء، وليست الهموم والأحزان علامة على غضب الله، بل بالعكس «كان يسوع يحب مرثا وأختها ولعازر. فلما سمع أنه مريض مكث حينئذ فى الموضع الذى كان فيه يومين» حتى وإن مات لعازر (يو١١:٥و٦). إن محبة الله قوية وأمينة وحارة، ولا تبغى لنا الراحة والتدليل، بل البركة الدائمة والسعادة الأبدية. هذا ما تسعى إليه دواما. وفى محاولتها أن تسمو بأرواحنا عن هذا العالم إلى السماء، كثيرا ما أخطأ البشر فهمها وقلبوا أوضاعها، ولكنها لقوتها تحتمل إساءاتهم هذه. إذن فمحبة الله تأتى مؤدِّبة ومعلمة إيانا.

لندخل كتلاميذ فى مدرسة محبة الله. لنضع جانبا كل أفكارنا عن برنامج الدراسة، ولنخضع تماما لإرشاده وتعليمه، ولنكن مستعدين لتلقى أى درس من سبورة الأحزان، ولنثق كل الثقة فى محبته التى لا حد لها حتى ولو قُتلنا[١]. ولنتطلع إلى تلك الساعة الرهيبة التى سوف يعطينا فيها تعليلا لكل آلام الحياة، لنتطلع إليها بابتسامة تملأ نفوسنا غبطة وسعادة وتلاشى كل أثر للحزن والتنهد إلى الأبد.

(٤) وتعطينا حياة يعقوب مفتاحا لعقيدة الاختيار:

---

[١] «هوذا يقتلنى. لا أنتظر شيئا» (أى ١٣:١٥) أو «إنه ولو قتلنى أبقى آملا له» حسب ترجمة اليسوعيين أو «ولو قتلنى أبقى واثقا فيه» حسب الترجمة الإنجليزية.

كان الاختيار ملموسا فى حياة هذه الشخصية. والرسول بولس يتحدث عنها لإيضاح هذه الحقيقة الغامضة (رو٩:١١)؛ وهذا هو الواضح من مجرى الحوادث. فإن يعقوب كان الابن الأصغر، وإن حياته لتقدم رسالة حية لأصغر الأبناء مثل ذلك المثل الرائع، مثل الابن الضال. لم يكن الطفلان قد ولدا عندما سبق الرب وأنبأ عن مصيرهما وحده.

من المستحيل أن نتجاهل الاختيار. ولقد صدق من قال إنه هو المفتاح لنظام كل الطبيعة وكل التاريخ. هنالك ملائكة مختارون، ونجوم مختارة، وأجناس حيوانات مختارة، وزهور وثمار مختارة، ونفوس بشرية مختارة. وإنك لن تجد المساواة والمطابقة والتماثل فى أى مكان، بل فى مكان تجد بعض الأشياء وبعض الكائنات قد تميزت بمواهب فائقة تسمو بها عن غيرها من الأشياء والكائنات وتكاد تكتسحها؛ فنجم يمتاز عن نجم فى المجد، والبعض يضىء بلمعانه فى كبد الظلام، والبعض قد تبعثر فى السماء يكاد يكون لا أثر لضوئه.

هكذا الحال مع الأجناس البشرية، فبعض الشعوب يقفون فى المقدمة ويتزعمون العالم فى المدنية. وشعوب أخرى يتعثرون فى الجهل ويتسكعون فى دياجير الظلام.

وهكذا الحال أيضا مع أرواح البشر، فالبعض يولدون لكى يكونوا قادة البشرية ومعلميها وسادتها. وهكذا كان الحال مع إرميا النبى (إر٥:١)، ومع كوش الغازى (إش٤٥:١، ٤)، ويوحنا المعمدان (لو١:١٧)، وما هؤلاء إلا أمثلة من ربوات كثيرة.

ولكن لأى شىء يُختار هؤلاء؟ للراحة والتنعم والرفاهية؟ كلا، فإن هذه تقع عادة من نصيب أمثال عيسو أكثر مما تقع من نصيب أمثال يعقوب. بل إن مختارى الله يُختارون لكى يتقدموا الصفوف فى الأحزان والآلام والهموم.

إذن فهل يُختارون لخلاصهم الشخصى، فى كثير من المواضع التى ورد فيها ذكر الاختيار لا يكون المعنى قاصرا على هذه الناحية. والواقع أن الكتاب المقدس لا يقطع بحرمان عيسو نفسه من حضن إبراهيم. صحيح أنه حُرم من البكورية، ولم يستطع أن يستردها بالبكاء والدموع، ولكن حرمانه من البكورية لا يحتم حرمانه من خلاص نفسه.

أفلا يحق لنا القول إن الاختيار يشير إلى مدى أوسع، إلى الخدمة التى يؤهل

المختارون لتقديمها لإخوتهم فى كل أيامهم التالية؟ فإنهم لا يُختارون من أجل أنفسهم، ولا من أجل مستقبلهم، بل من أجل العمل الذى تؤهلهم له مراكزهم ومواهبهم لإتمامه للبشرية.

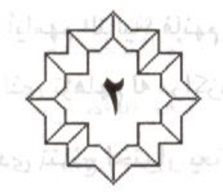
ولا ريب فى أن هذا كان إحدى نتائج اختيار يعقوب وشعبه. فإنهم قد اختيروا لكى يكونوا قادة البشرية ومعلميها فى الناحية الروحية، لكى يقدموا إلينا أسمى قطعة فى الآداب الدينية (العهد القديم)، لكى يهيئوا منبرا مناسبا يظهر عليه مخلص العالم، ويذيع منه نفوذه وتأثيره على العالم. والله لم يعطهم النور والحياة، ولم يحفظهم من كل العوامل المدمرة والتيارات الجارفة، ولم يودع فيهم ينابيع القوى الروحية لراحتهم هم، بل لراحة وخير العالم الذى كان يعيش فى ظلام دامس.

وهذا يفسر لنا أيضا سر الآلام الشديدة جدا التى اجتازوها. فإنها كانت لازمة ،لا من أجلهم فحسب، بل من أجل الشعوب التى كان عليهم أن يقوموا بخدمتها، لكى يتنقّوا من كل العوامل المفسدة ويثبتوا كآنية الله المختارة تفيض منهم البركات على العالم.

إذن فعلى كل نفس تطلب الخلاص أن لا ترتبك فى البحث فى هذا الموضوع الغامض، بل يكفيها أن تعلم أنها على باب الخلاص لن تجد سوى كلمات الترحيب بالجميع بدون استثناء. وحالما نخطو عتبة الباب، ندرك أن الله عندما دعانا، كان ذلك لكى يرحم أشخاصا آخرين عن طريقنا.

على أن هذا الموضوع الغامض وأشباهه سوف يزداد وضوحا إذ نتابع دراستنا فى حياة يعقوب.





بيع البكورية (تك ٢٥)

إن كل ما يسرنا فى الحياة أو يبكينا، إنما هو من فعل أيدينا.
وإذا ابتـــــسم المســـتـــقـــبل أو ظلم،
كـــان ذلك نتـــيـــجـــة لماضـــينا
واذا صـار نسـيج الحيـاة ناصع البيـاض أو أسـود،
فـليس مـسـئـول أحـد سـوانا.
وسـوف نحـصـد مـا غـرسـتـه أيدينا.

هويتير

كان هذان الرجلان يعقوب وعيسو أخوين، بل توأمين، ولكن لعلنا لا نجد أخوة تباعدت مسافة الخلاف بينهم كما كان الحال مع هذين الأخوين. قبل ولادتهما، أنبأ الله بما سيكون بينهما من تباين. وعند ولادتهما، تبين ما بينهما من اختلاف ظاهر. ومنذ ولادتهما، ابتدأت مسافة الخلاف فى الاتساع والازدياد، لأنه لم تطل مدة اتحادهما وارتباطهما أكثر من عهد الطفولة البريئة، وبعد ذلك ازدادت شقة الخلاف بينهما كلما تقادمت عليهما الأيام.

لقد اختلفا فى المظهر: فعيسو كان خشن الملمس، أحمر، أشعر، كان شكله يُشعر بالقوة البدنية، والمقدرة على تحمل المشاق الجسيمة، والميل إلى الإقدام والمخاطرة.

أما يعقوب فإنه على النقيض، كان ناعم الملمس، أسمر اللون، نحيف القوام، لا وجه للمقارنة بينه وبين أخيه فى القوة البدنية، ولكنه يبزه فى المكر والدهاء.

واختلفا فى الأهداف: فعيسو كان صيادا ماهرا «إنسانا يعرف الصيد، إنسان البرية» (ع ٢٧). ولو أنه كان بين ظهرانينا الآن لتفوق فى أعمال البطولة والألعاب الرياضية. ولعلنا نجد اليوم من يشبهه بين أبناء الطبقة الأرستقراطية من الشبان، وسيم الطلعة، كريم الأخلاق، سخيا فى التوزيع، سريع الغضب وسريع الصفح، جميل الهندام، حميد الخصال، صيادا، خيّالا بارعا، خبيرا بكل أنواع الألعاب الرياضية. يعرف كيف يتزوج حسنا كما فعل عيسو وأنشأ بيتا قويا نبيلا.

أما يعقوب فإنه - بعكس ذلك - أحب الحياة الهادئة فى بيته، ولم تَرُق فى عينه أعمال البطولة والمخاطرة التى ألِفها عيسو. وبينما كان عيسو يتجول فى البرارى والقفار، كان هو قابعا فى عقر داره، قانعا برعاية قطعان المواشى والأغنام فى الحقل، مكتفيا بحياة رعاية الأغنام الهادئة البعيدة عن الأخطار. وهكذا اختار كل منهما ما يتفق وذوقه ومزاجه.

على أن أكثر اختلافهما كان فى الأخلاق والصفات: إن فى حياة عيسو كثيرا من الأخلاق التى تجعلنا نشبهه. ولا شك فى أننا أكثر ميلا إليه من أخيه. وهو، وإن كان متهورا، فقد كان كريما «متسامحا». وإن كان متسرعا، فقد كان صريحا، وإن كانت تنقصه الغيرة الدينية، فقد كان ابنا بارا. وإن كان قلبه قد شغف بالصيد، فقد كان خير الرفيق، وتوفرت فيه كل صفات الرجولة.

على أنه رغم ذلك، كان شهوانيا أو «مستبيحا» كما يصفه الكتاب (عب١٢:١٦)، أى أنه كان مستعبَدا لشهواته. كان يرحب بكل ما يثير فيه أية شهوة ولو كانت وقتية عابرة. كان يقبل أن يشترى المتعة واللذة بأى ثمن ولو خسر أثمن كنوز حياته الروحية. كان ينخدع بلذة الساعة العابرة حتى لا يبالى بالحقائق غير المنظورة. ولا يبالى بحصاد الأبدية الذى لا يناله إلا كل من عرف كيف يزرع بالصبر والانتظار والآلام. وما أكثر الذين يشبهون عيسو مع الأسف الشديد.

أما يعقوب، فكان «إنسانا كاملا» [أو «بسيطا» حسب الترجمة الإنجليزية] (ع٢٧). ولكن، كان وراء هذه البساطة الخارجية أعماق وأعماق. كان وراء خداعه ومكره مقدرة على

الغيرة الدينية الحارة والإيمان الشديد. فإنه استطاع أن يدرك - ما لم يدركه عيسو - معنى البكورية بكل أمجادها الروحية. واستطاع أن يكشف الحجاب ويرى المنظور. ويقدر كل ما تنطوى عليه هذه البكورية من مواعيد، ويقارن بين كنوزها وبين إغراءات العالم. وأتيح له أن يحلم الأحلام التى يرى فيها الملائكة تحيط به وتمد سلما رمزيا فى الفضاء اللانهائى لكى يكون صلة بين كل العالم. وبينما كان عيسو منشغلا بملذاته، كان يعقوب، بنفسه الطموحة، يعز عليه أن يقنع بما وجده فى حدود خيامه الضيقة، بل كان يحن إلى ذلك الميراث الروحى الذى يتضمن فى «البكورية».

والآن لنتأمل فى البكورية والمبادلة والصرخة المرة.

(١) البكورية

وماذا كانت تعنى؟

لم يقصد بها نجاح عالمى، فإن عيسو مع فقده أياما كان له حظ وفير: كان يتبعه أربعمائة رجل مسلح (ص٣٢:٦)، وكانت مملكة أدوم المترامية الأطراف فى قبضة يده. ورقد فى قبره بسلام وبشيبة صالحة بعد حياة موفقة ناجحة مليئة بأعمال البطولة. وفى التاريخ القصير الذى بين أيدينا عن حياته، لا نعثر على ما يجعلنا نعتقد أنه عاش حياة متهدمة أو فاشلة، فقد كان يملك كل ما يمكن أن يقدمه إليه العالم، وقد أغدقت عليه الدنيا كل ما تستطيع من سعة. وتلك الصرخة الأليمة التى انبعثت من قلبه حالما فقد البكورية، سرعان ما نسيها عندما وجد نفسه لم يخسر شيئا يهمه كثيرا، كان مغمورا بالخيرات الجزيلة التى تشتهيها نفسه.

ومهما كانت البكورية، فإنها لا يمكن أن تعنى النجاح العالمى. لأن عيسو - الذى خسر البكورية - كان أوفر حظا فى هذا النجاح العالمى من يعقوب أخيه الذى حصل عليها.

ولم تكن مناعة ضد الأحزان، لأنه حالما حصل يعقوب عليها، انصبت عليه كل جامات الغضب والآلام والأحزان. فقد نُزع من أوطانه، وهام على وجهه يسعى إلى بلاد بعيدة وعكازه

فى يده. وقضى زهرة العمر أجيرا فى بيت أحد الأقارب. وإذ كان يخمع[١] على فخذه أحنى هامته أمام عيسو. دفن زوجته المحبوبة راحيل، تلظى بنار المصائب التى جلبها عليه أبناؤه، حرم منهم، وأخيرا نراه يئن لأن أيام سنى غربته كانت قليلة ورَدِية. قليلون هم الذين سلكوا طرقا أوعر من طريق يعقوب، والذين كللت هاماتهم بأكاليل من الشوك أشد صلابة وقسوة. كانت مليئة بالأحزان والمتاعب تلك التى لفظت أنفاسها الأخيرة فى أرض الفراعنة إذ «ضم رجليه إلى السرير وأسلم الروح وانضم إلى قومه» (ص٤٩:٣٣).

ومهما كانت البكورية، فإنها لا يمكن أن تعنى الإعفاء من الآلام والأحزان، لأن يعقوب، الذى حصل على البكورية، كان أوفر حظا فى تلك الأحزان من عيسو أخيه الذى خسرها.

ولكن البكورية كانت ميراثا روحيا. كانت تعطى صاحبها - أيا كان - الحق فى أن يكون كاهن الأسرة أو العشيرة. وكانت تتضمن هذا الامتياز وهو أن يكون صاحبها مستودع الأسرار الإلهية وناقلها إلى البشرية. وكانت تكوّن حلقة فى سلسلة النسب الذى يولد منه المسيا فى العالم. كان حق نوال القوة والاقتدار مع الله والناس، حق استلام وتسليم مشعل رجاء المسيا، حق وراثة مواعيد العهود التى قُطعت لإبراهيم، حق القيام بين أبطال العالم فى الحياة الروحية، حق القيام كأحد غرباء الأبدية دون المطالبة بتملك وطأة قدم من الأرض لأن السماء كلها مضمونة لهم - كانت كل هذه الحقوق وأكثر منها تتضمن امتلاك البكورية.

لهذا فقد كانت ميراثا حسنا. والأحسن منها هى البكورية التى لكل واحد ممن يقرأون هذه الكلمات. فإنك قد ولدت فى عالم وطئته أقدام ابن الله وبلله بدموعه. وولدت من جنس تم فداؤه بثمن غال جدا - دمه الثمين - وولدت من طبيعة اتخذها ذاك الذى رفض أن يتخذ طبيعة الملائكة. مثل هذه الولادة تتضمن الكثير من الحقوق والامتيازات التى تعطَى لنا بنعمة الله الفائقة، والتى لا وجه للمقارنة بينها وبين حقوق بكورية العهد القديم.

ولادتك تعطيك حق الانتقال من ملكوت الظلمة إلى ملكوت ابن الله الوحيد، حق المطالبة بالامتلاء من الروح القدس، حق المغفرة والخلاص، حق البنوية للرب الإله القادر على كل شىء،

---

[١] يعرج، راجع تك ٣٢:٢٢-٣٢ (مكتبة المحبة).

حق الوقوف من الابن فى مجده والوراثة معه فى كل ما له، حق النصرة الكاملة على كل قوات أعدائك، حق الخلاص من الخطيئة والاشتراك ضمن زمرة الغالبين على الوحش، الواقفين على البحر الزجاجى المختلط بالنار ومعهم قيثارات الله (رؤ١٥: ٢).

هذا يمكن أن يكون ميراثك المجيد. إنه لا يمكن أن يُشترى أو يُنال بقوة ذراعك. إنه محفوظ فقط للذين بعد أن ولدوا من امرأة يولدون من الروح القدس. قد لا تدرك النفس فى بدء الأمر حقها نحو الاشتراك فى هذا الميراث إلا وسط الدموع والعواصف، ولكن حتى فى هذه الحالة إن رجاءها فى ميراثها الأبدى ينعشها وهى تجتاز الآم ومصائب الحياة فى طريقها إلى الراحة الأبدية. وهذا الرجاء لا يخزى. ولا شك فى أن عجب الأبدية العجاب سوف يكون فى أن ميراثا مجيدا كهذا صار فى مقدور أبناء هذا العالم الذى وُضع كله فى الشرير والذى استحق اللعنة بسبب الخطية.

(٢) المبادلة

كان يعقوب فى أحد الأيام يطبخ أكلة شهية من العدس الأحمر الذى لا يزال إلى الآن من أحب الأطعمة فى سوريا ومصر. وكانت رائحة العدس تملاء الجو وتكفى لإغراء أى إنسان، سيما الجائع. وفى تلك اللحظة، من كان ينتظر أن يدخل عليه منهكا من الجوع إلا عيسو؟ إنه لم يعرف اسم ذلك الطعام لأن حياته النشيطة لم تترك له وقتا للاهتمام بمثل تلك الأمور التافهة كالطبخ. على أن المنظر والرائحة كانا كافيين لإقناعه بأن طعام يعقوب أنسب ما يكون لإشباع جوعه. فصرخ فى الحال فى هلع قائلا: «اطعمنى من هذا الأحمر».

لم يكن يعقوب أنانيا إلى الحد الأقصى. على أنه خطر بباله فجأة أن هذه فرصة مناسبة لكى يطلب أن يكون له الحق فى أن يكون القائد الروحى للعشيرة. ولأنه كان يعلم تمام العلم أن أخاه لم يكن يبالى بحقوقه، عرض عليه هذا العرض الشاذ، أن يبادله البكورية بأكلة العدس.

قبل عيسو الأبله ذلك العرض، وقال: «ها أنا ماض الى الموت. فلماذا لى بكورية»، أو ماذا أنتفع بالبكورية؟ وضع فى الكفة الواحدة البكورية، وكانت فى نظره شيئا وهميا، بعيد

المدى، غير منظور كلية، روحيا، وفى الكفة الأخرى وضع تلك الأكلة مجهزة أمامه. ومغرية جدا له بسبب جوعه. وبعد أن وازن بين الكفتين تنازل ليعقوب عن البكورية. «فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس. فأكل وشرب وقام ومضى». ولاشك فى أنه أحس بوخزات فى الضمير وهو ماض. وهكذا «احتقر عيسو البكورية».

نحن لا نستطيع أن نخلى أى واحد من الاثنين من اللوم. فيعقوب لم يخدع أخاه فقط، ولكنه غير أمين لإلهه. ألم يهمس الله صريحا فى أذنى أمه أن الكبير يستعبد من الصغير؟ ألم يكن تحقيق أعز آماله وأمانيه مضمونا بواسطة ذاك الذى طالما تحدث معه إبراهيم عن أمانته المطلقة إذ عاشره يعقوب مدة الثمانية عشر عاما الأولى من حياته؟ ويقينا أنه كان على أتم الثقة بأن ما وعد به الله هو قادر أن يتممه أيضا، ومستعد أن يتممه دون تدخله هو بآرائه غير الناضجة. ولكن ما أشق أن ننتظر الله، فنحن نميل جدا إلى أن نتعجله ونتعجل الاطلاع على مقاصده، ونختطف البركات الموعودة قبل نضوجها.

أما عن عيسو، فإننا لا يمكن أن ننسى الكلمات البارزة التى تحدث بها الكتاب المقدس «ملاحظين... لئلا يكون أحد زانيا أو مستبيحا كعيسو الذى لأجل أكلة واحدة باع بكوريته» (عب١٢:١٦). ولكن لندقق البحث فيما حولنا ونحن ندينه من وراء الأجيال. فكم من أشخاص بيننا ولدوا فى العالم بمواهب ممتازة وقوات غير عادية، وارثين لأسماء نبيلة وممتلكات شاسعة، لهم سلطان أن يمنعوا أو يمنحوا البركات الجزيلة لأشخاص كثيرين، ومع ذلك فإنهم يقضون القضاء المبرم على كل هذه الامتيازات والمواهب، والفرص السانحة التى بين أيديهم، بسبب انزلاق أرجلهم، ولو مرة واحدة، فى بالوعة محبة الذات والشهوات.

كثيرا ما كان أقوى الناس عضلا وجسما أضعفهم فى مقاومة الشهوات العارضة الفجائية. فعيسو غُلب أمام رائحة أكلة واحدة(ع٢٩-٣٣)، وشمشون خر صريعا أمام إغراءات فتاة فلسطينية.[١] وبطرس أمام سؤال خادمة.[٢] ذلك لأنه لن توجد قوة بعيدة عن ابن الله القوى.

---

[١] راجع قض ١٦:١٧-٢١ (مكتبة المحبة).

[٢] راجع مت ٢٦:٦٩-٧٥؛ مر١٤:٦٦-٧٢؛ لو٢٢:٥٤-٦٢؛ يو١٨:١٧ (مكتبة المحبة).

ثم إن تجارب الشهوة طالما أتتنا فى الوقت الذى لا ننتظرها فيه. «لأنه حينما يقولون سلام وأمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتة» (١تس٥:٣). والعدو رابض وراء الباب الخلفى. والسهم يخترق أوصال الدرع. ولحظة الخطر هى اللحظة التى ننجو فيها من أخطار الصيد وندخل البيت الذى نجد فيه الحصانة من أخطار هجوم الوحوش المفترسة «اسهروا إذاً وتضرعوا فى كل حين لكى تُحسبوا أهلا للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون» (لو٢١:٣٦).

وفوق ذلك، فإن هذه التجارب تأتى فى أتفه الأمور. أكلة واحدة، كأس واحدة من الخمر، لحظة واحدة فى إطلاق العنان للشهوة الجامحة، نزهة واحدة، سؤال واحد وجواب، حركة أو نظرة واحدة. فى مثل هذه الأمور التافهة، مثل زواية التفرع فى شريط السكة الحديد التى تتفرع منها الخطوط إلى الشرق أو الغرب، وتكون الموقعة الحاسمة والحد الفاصل فى أجَلِّ الأمور وأخطرها شأنا، وفيها يخير المرء للسير شرقا أو غربا. عندما نفشل فى أمر كهذا، فكثيرا ما نعزى أنفسنا بانتصار سابق لنا فى موقعة أهم. وإن كنا لا نستطيع أن نصلى فى مخدعنا، فقد نفاخر بمواقف البطولة التى وقفناها من قبل. وإن كنا لا نستطيع التحدث مع شخص واحد، فقد استطعنا أن نعظ فى يوم الخمسين. نحن لا نعرف أنفسنا تمام المعرفة. ولا ندرك أن الأمور التافهة هى أصدق محك للأخلاق. إن جرينا مع المشاة فأتعبونا فكيف نبارى الخيل، وإن كنا منبطحين فى أرض السلام، فكيف نعمل فى كبرياء الأردن (إر١٢:٥). إن الحياة المسيحية لا تحتقر أى أمر تافه، فكل شيء عظيم، إذ أن معظم النار من مستصغر الشرر، وأعظم حصاد - فى الخير أو الشر - ينشأ من أصغر البذور.

ولو أننا كنا واقفين بجانب عيسو لأشفقنا عليه، وتوسلنا إليه بإلحاح أن يتريث ويتأمل مليا قبل أن يرفض مبادلة الروحيات بالجسديات، والأمور الأبدية بالزمنية، وغير المنظور بالمنظور، ولوجهنا إليه هذه الأسئلة: هل الصفقة رابحة، هل من الحكمة أن تخطو هذه الخطوة، هل ستجد بديلا ونظيرا لما ستخسره الآن إلى الأبد؟ ولا زالت أمثال هذه الأسئلة تردد فى آذان أمثال عيسو الذين يجربون بمبادلة سلامهم ورجولتهم وسعادتهم الأبدية بأكلة واحدة من طعام الشيطان، الذى يبدو شهى النظر، شهى الرائحة، والذى يمنيك بتقديم خيرات أجزل من كل ما يقدم الكتاب المقدس. وطالما همس المجرب فى آذان البشر قائلا:

«لا تموت موتا، أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لى، أعطنى ذلك الذى لديك فأعطيك هذا وأكثر منه».

وفى مثل هذه الأوقات، يجب الإصغاء إلى ذلك الصوت الهادىء الخفيف: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، وماذا ينتفع إن خسر أعز ما يملك نظير أكلة واحدة لا تسد رمقه إلا لحيظات معدودات». تعلم إذن كيف تتغلب على شهوتك وتضبطها بقوة المسيح. فإن ذلك خير لك وأجدى من أن تتفادى ضغطها لحظة ثم تتركها لتعود إليك بشراهتها وحدّتها كقطيع من الذئاب ذاقت الدماء. «تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك» (رؤ ٣:١١).

(٣) الصرخة المرة

لما رأى عيسو أن الله قد أخذه بكلمته، وجرده من حق البكورية بما ينطوى تحتها من امتيازات روحية «صرخ صرخة عظيمة ومرة جدا» (تك٢٧:٣٤). ولكن هذه الصرخة أتت متأخرة عن أن تغير نتائج اندفاعه. «لم يجد للتوبة مكانا (لم يجد وسيلة لتغيير قرار أبيه) مع أنه طلبها بدموع» (عب١٢:١٧).

«لم يجد للتوبة مكانا»: كثيرا ما وقعت هذه الكلمات كالصاعقة على قلوب الكثيرين منتزعة منها كل رجاء. عندما يتأمل الخاطىء الكسير القلب فى ماضيه التعس بدموع ثخينة وصراخ أليم، يأتى عدو النفس ويهمس فى أذنه بأنه قد أغرق فى خطاياه، فلن تجديه التوبة نفعا، وأنه قد توغل فى الضلال فلن يستطيع الرجوع، ثم يدعم افتراءاته بهذه الكلمات المرعبة «لم يجد للتوبة مكانا».

وهل الأمر كذلك؟ هل يمكن أن تصل النفس فى هذا العالم إلى الحالة التى لا تجدى فيها الدموع والصلوات، كأن السماء قد صارت نحاسا؟ هذا لا يمكن أن يكون. يجوز أن يتقسى قلب الإنسان جدا حتى لا يرغب فى الخلاص. هذه هى الخطية التى للموت، هذه هى الخطية التى ليس لها غفران، وسبب عدم الغفران هو أن الخاطىء لا يشتهيه ولا يطلبه. ولكنه يستحيل أن يرغب إنسان فى التوبة ولا يجد معونة فى نعمة الروح القدس، يستحيل أن يطلب

إنسان الغفران بدموع ولا يناله، يستحيل أن يقرع إنسان باب الرحمة ولا يفُتح له أخيرا، ولو بعد وقت طويل «كل خطية وتجديف يغفر للناس» (مت١١:٣١)٠ والواقع أن هذه الرغبات والدموع والصلوات، هى علامات مباركة على أن عمل النعمة والغفران قد بدأ فى النفس٠ فإنها ليست من صنع إنسان، ولا هى من مشيئة لحم، بل هى من الله٠ وعندما يضع الله يده على المحراث فى النفس البشرية فإنه لا ينظر إلى الوراء٠

على أن «التوبة» المذكورة هنا ليست هى التوبة للخلاص، بل هى القوة لتغيير الماضى٠ فإن عيسو لم يكن ممكنا له أن يمحو ما قد فعله٠ فقد مضى عليه وقت طويل وهو يحتقر البكورية٠ ولم يكن تنازله عنها وليد الساعة، بل نتيجة حالة القلب٠ كان هذا التنازل مجرد إعلان للأفكار التى اختمرت فى كنز قلبه٠ ولكن عندما برزت الفكرة من حين التفكير إلى حيز التنفيذ – بشكل تعهد مقرون بقَسَم – أمسكه الله بتعهده، بل أمسكته به الطبيعة والعدالة والضمير، ولم يستطيع تغييره بدموعه أو بصرخته المرة٠

إن الماضى الأثيم لا ينُسى ولا يمُحى٠ ربما تكون حواء قد ندمت على فعلتها الشنعاء، ولكنها إذ وقفت مع آدم خارج الباب الذى سلُمت حراسته للكروبيم، وفى يدها الوردة الذابلة، التى يحدثنا عنها معلمو اليهود، فإن توبتها المرة ودموعها السخينة لم تستطع إعادة التفاحة إلى الشجرة أو إرجاعها هى إلى مقامها البهيج فى الفردوس٠ وبطرس خرج خارجا وبكى بكاء مرا،[١] ولكن تلك الدموع الحارة لم يكن ممكنا لها أن تسترد كلمات الإنكار أو تمسح من ذاكرته تلك النظرة الأسيفة٠ ولعل العذارى قرعن صدورهن فى أسف وندم وحزن، ولكن الدموع مهما كانت، لم تستطع أن تغير الحكم النهائى الذى خرج من فم العريس٠[٢]

كلنا يعلم هذا٠ عندما نتذكر الكلمات التى خرجت من أفواهنا فى ثورة الغضب فكسرت قلوب البعض، وفصلت عنا المحبين، ولبّدت الجو الصحو بالغيوم، وضيعت الآمال الشامخة، وعطلت الأعمال النافعة، يهون علينا أن نقدم أنفس ما لدينا فى الوجود ثمنا لمحو هذه الكلمات كأنها لم تكن٠ ولكن هذا مستحيل، فإننا لن نستطيع أن نرجع الظل، ولن

[١] انظر مت ٢٦:٧٥ ؛ لو ٢٢:٦٢ (مكتبة المحبة) .

[٢] راجع مت ٢٥:١-١٣ (مكتبة المحبة) .

نستطيع أن نمحو الكلمات من السجل الذى يدونه المؤرخ الأمين، ولن نستطيع أن نجد فرصة لتغيير الفكرة التى ظلت تختمر فى عقولنا زمنا طويلا، ثم أبرزتها إلى الوجود كلمة واحدة أو تصرف واحد. لا يوجد مكان للتوبة مهما طلبناها باجتهاد وبدموع. لن نستطيع أن نمحو الماضى.

على أن الماضى، إن كان لا يُمحَى، فإنه ليس غير قابل للإصلاح. ففى بستان جثسيمانى قال الرب لمختاريه الثلاثة بحزن: «ناموا الآن واستريحوا». ولكنه قال لهم بعد ذلك مباشرة: «قوموا لنذهب». وبهذا قد علمهم الرب فى العبارة الأولى أن الماضى لا يمكن أن يمحى، لأنه قصد أن يقول لهم ناموا الآن لأن السهر لم يعد يفيد. أما فى العبارة الثانية، فقد علمهم أن المستقبل لا زال أمامهم بفرصه الجديدة، وظروفه الجديدة، وآماله الجديدة.

وهذا ما يحصل إلى الأبد. إن الله نفسه لا يمكنه أن يمحو الماضى، لا يمكنه أن يمحو من الوجود خطية داود أو غيره كأنها لم ترتكب، ولكنه يستطيع أن يغفر، ويريد أن يغفر. هو يذكر الماضى، ولكنه يعطينا بداية صالحة. بل هو يستطيع أن يعوض «عن السنين التى أكلها الجراد» (يوئيل٢:٢٥).

إنه يعطينا فرصا جديدة لنُظهر فيها توبتنا الصادقه عن تصرفات الماضى، وإخلاصنا الأكيد فى رغبتنا لعبادته وخدمته فى تصرفات المستقبل. وحتى إن أنكرناه ثلاث مرات، فهو لا يذكر هذا، بل يعطينا ثلاث فرص نقول له فيها كيف نحبه عندما يأمرنا ثلاث مرات بأن نرعى غنمه.[١]

«مات الملك» هذا هو نداء الماضى الذى لا يمحى، «يحيا الملك» وهذا هو نداء المستقبل المزدهر بالآمال.



[١] انظر يو٢١:١٥-١٧ (مكتبة المحبة).



البركة المغتصبة (تك ٢٧)

لا يمكن أن يتم عمل صالح أو طالح إلا ويترك وراءه سجلا مكتوبا بأصبع خفية وتعقبه بركة أو لعنة حتى يقتص من أخطاء الأجيال أخيرا ويستعلن عدل الله

أنون

في كثير من القرى نجد بركة ماء راكد قد تقادم عليها العهد جدا. وأنت تنظر إليها عندما يهب نسيم الربيع أو تتناثر عليها أوراق أشجار الخريف، تحسب أنها تحمل بين شواطئها مياها نظيفة. ولكنها عندما تتعرض لأشعة الشمس الشديدة فى الصيف، تنبعث منها بوفرة تلك الغازات الخانقة التى كانت جاثمة فى قاعها غير مدركة، فتنتشر الحمى فى الأماكن المحيطة. هذه هى حالة قلب الإنسان. إنه لا يخطر ببالنا ولا نبالى بأن نعرف مقدار الشر الكامن فيه. ونحن إذ نمر على تلك الصورة المرعبة التى صورها له ذلك الذى لا يكذب ولا يبالغ، والوارد بيانها فى (مر٧:٢١و٢٢)[١] نمر عليها مر الكرام دون اكثرات. كما أننا لا ننظر إلا نظرة سطحية لتلك الكلمات الأخرى التى تصور القلب البشرى بأنه «أخدع من كل

[١] «لأنه من الداخل من قلوب الناس الأفكار الشريرة: زنى، فسق، قتل، سرقة، طمع، خبث، مكر، عهارة، عين شريرة، تجديف، كبرياء، جهل.»

شيء وهو نجيس» (إر١٧:٩)· ومع ذلك، فنحن لا نشعر بمقدار الشر الذى فينا· ولا نتحقق صدق هذه الكلمات· ولا ندرك مقدار طبيعتنا، أو شدة احتياجنا إلى الله، إلا حين نقدم لامتحان فاحص يعلن لنا ذواتنا·

والتجربة هى هذا الامتحان الفاحص، إنه لا خطية فى أن نجرَّب· فكاهننا الأعظم جُرِّبَ فى كل شيء مثلنا، لكنه كان بلا خطية (عب٤:١٥)· وليس من المحتم أن تنتهى التجربة بالخطية، طالما كانت الإرادة القوية الثابتة تصمد أمام فساد الطبيعة البشرية بقوة الروح القدس· بل إن التجربة بَركة «طوبى للرجل الذى يحتمل التجربة» (يع١:١٢)، عندما تؤدى بالإنسان إلى اكتشاف أمياله وحركاته وشهواته الخبيئة فى نفسه، والتى كان يجهلها قبلا، والتى يجب أن يحذر منها من الآن فصاعدا.

إن الله يسمح لنا بأن نجرَّب لكى تعلَن لنا الشرور الكامنة فى قلوبنا، ويسمح بأن يضع أمامنا مرآة لكى نرى فيها أى أناس نحن، كما يجعلنا نشعر بنقصنا ونجاستنا لكى يدفعنا إلى تسليم ذواتنا له بالتمام، وإتمام ما يرضيه، إذا ما أنقذنا من جسد هذا الموت. إن معرفة الإنسان لنفسه، ويأسه من إصلاح نفسه بنفسه، هما تمهيد لتلك القوة المباركة التى تستطيع أن تحول القصبة المرضوضة إلى عمود فى هيكل الله، وتُخرج من كتله من الطين إناء للكرامة، وتحول يعقوب إلى إسرائيل.

إذًا فلا نعجب مطلقا إن علمنا أنه قد سُمح بأن تأتى التجربة إلى يعقوب من مصدر لم يكن منتظَرا أن تأتيه منه، وأن تأتيه على حين غفلة· وإن كنت راغبا رغبة صادقة فى الوصول إلى درجة النضوج فى الفكر المسيحى، وإلى درجة الكمال فى الحياة المسيحيه، فلا تعجب إن وجدت – استجابة لصلاتك التى طلبت فيها نعمة أغزر وحياة أوفر – أن أباك السماوى يستخدم وسيلة لم تكن منتظرة، يعلن لك بها ذاتك.

هذا ما اختبره «نيوتن» فقال:

طلبت من الرب أن أنمو
فى الإيمان والمحبة وكل نعمة

وأن أزداد تعـمـقـا فى إدراك مـعنى خـلاصـه

وأن أرى مــجــد وجـــهـــه

وعـــوضـــا عن تلك جـــعلنى أدرك

الشـــــرور الـكـامـنـة فـى قـلـبـى

وســمح لقـــوات الجـــحـــيم

أن تهـــاجم نـفـــسى فـى كل ناحـــيـــة

(١) كان الباعث للتجربة شهوة جسدية كامنة في نفس إسحق:

يعسر علينا أحيانا أن نصدق بأن اسحق هذا الإصحاح هو نفس ذلك الصبى الخاضع المطيع الذى حمل حطب المذبح على منكبيه، وتساءل عن الخروف للمحرقة، ثم ارتضى بكل وداعة أن يوثق كمحرقة. لقد كان ذلك عصرا ذهبيا للحياة البشرية. ولكن سرعان ما خبا ذلك النور اللامع الساطع لسبب معين.

وما هو ذلك السبب؟ أكان هو تلك العظمة التى نقرأ عنها فى الإصحاح السالف؟ «فتعاظم الرجل وكان يتزايد فى التعاظم حتى صار عظيما جدا» (تك٢٦:١٣). لم تكن هذه هى آخر مرة صدت فيها العظمة كل تقدم روحى. أكان هو رخاوته وعدم مبالاته، الأمر الذى نلمح صورته فى استعداده بأن يتنازل عن بئر بعد بئر لو أمكن أن يُترك فى سلام؟ (تك٢٦:١٥إلخ). ليست هذه هى المرة الوحيدة التى عطلت فيها الرخاوة وعدم المبالاة طريق النبل والشرف. أكان هو شهوة جامحة نحو طعام الجسد؟ يظهر أنه كان فى تركيبه كثير من النقض فى هذه الناحية. فقد قال لعيسو «اصنع لى أطعمة كما أحب» (ع٤)، وكانت رفقة تعلم زوجها فى هذه الناحية «خذ لى من هناك جديين من المِعزَى. فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب» (ع٩)، لعل السبب راجع إلى كل هذه النواحى مع الأسف الشديد. فإن الرجل الذى أول ما يتجه إلى تفكيره، وهو على حافة الموت، هو أكلة طيبة من طعام دسم شهى، ليس هو الذى يضىء بلمعان خاص فى كبد السماء.

يجب أن نحذر كل الحذر من هاتين الخطيتين التوأمتين وهما الشره والسكر. إن عدم الاعتدال فى المأكل قد لا يؤدى إلى نفس النتيجة التى يؤدى إليها السكر نحو الحط من كرامة الإنسان بشكل ملموس، على أنه مؤذ للروح كالسكر تماما. والمسألة التى يهمنا بحثها هى: هل عامة المسيحيين يأكلون أزيد مما يؤدى إلى صحة كل من الجسد والروح؟ لا شك فى أن العالم مملوء، بل الكنيسة مملوءة بأشخاص لا عدد لهم قد ذبلت نضارة عقولهم، وفقدوا ذكاءهم وتبلدت حياتهم الروحية لأنهم يطلقون لشهواتهم العنان بشره فى التلذذ بالمآكل الفاخرة الزائدة عن الحد. فعلينا فى كل مرة نطلب فيها البركة على موائدنا، أن نطلب أيضا بأن لا يكون الطعام لمجرد إشباع شهواتنا، بل لمجد الله. «احترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم فى خمار[١] وسكر وهموم الحياة فيصادفكم ذلك اليوم بغتة» (لو ٢١:٣٤).

لقد انقضت السنون الطوال على تلك الحادثة الرهيبة التى تمت على جبل المريا، ولقد كانت هنالك علامات كثيرة تدل على أن شمس اسحق قد بدأت فى المغيب، وكان أهمها ضعف بصره. ولقد رتب الله برحمته أن تكون هذه العلامات كأجراس تذكرنا بالمرحلة الطويلة التى سلخناها من العمر، وباقترابنا من نهاية الحياة. وكم من أشخاص كانت القبور تضمهم وهم فى لهوهم وعدم مبالاتهم. لم توقظهم أمثال هذه العلامات ليقولوا لأنفسهم: «والآن إنى قد شخت، ولا أعلم يوم مماتى، فعلىّ أن أستعد للمشهد الأخير».

وفى الاستعداد المثلث النواحى الذى استعد به اسحق لنهاية حياته، نلمح الناحية المنيرة فى أخلاقه وصفاته، فإنه:

أولا - أوصى وصيته الأخيرة:

إن كنت لم تفعل ذلك بعد، فافعله الآن عاجلا، لأنك لن تجد وقتا أنسب. لا تترك شيئا معلقا بين الشك واليقين، ولا تترك الأمور للظروف. ولا تدع مجالا للتنابذ والخصام بين ورثتك.

ثانيا - ترك اهتماماته الأرضية:

لقد عاش سنوات طويلة بعد ذلك، ولكنه كان منعزلا عن العالم. لقد كان فى أواخر أيامه

---

[١] «تخمة» بحسب الترجمة الإنجليزية، أو «الشره» حسب الترجمة القبطية.

إذ ذاك، ولم تكن تلك الأيام مظلمة جدا، على أنها فى نفس الوقت لم تكن منيرة لدرجة تساعده على الجدل والعمل. ولذا، فكانت أنسب الأوقات للتأملات الروحية والصلاة. كانت أمنية أحد رجال الله أن تعطَى له أيام هادئة فى أواخر حياته بعد السنوات الطويلة التى قضاها فى النحب والجد والعناء.

ثالثا - وأخيرا مَنَحَ البركة :

ورغما عن محاولته تغيير مقاصد الله وقلبها، إلا أننا نرى جمالا ممتازا فى رغبة ذلك الشيخ فى منح البركة قبل مماته.

أيها الشيوخ، اعلموا بأن لنا، نحن الذين نصغركم سنا، كل الحق فى انتظار بركة منكم قبل أن تغادرونا، ننتظر منكم مشورة ناضجة، حكمة مكتملة، اختبارات روحية.

(٢) ثم إن هذه التجربة قُدِّمت ليعقوب عن طريق محبة رفقة غير المتزنة:

كان يعقوب ابنها المحبوب، ولا شك فى أن علاقتهما ببعضهما كانت أمتن من علاقتها بعيسو الذى لم تكن له غاية فى الحياة. وحالما سمعت - خلسة - طلبة اسحق من عيسو، اعتزمت فى الحال على تحويل بركته لابنها الأصغر. وإن كانت قد شعرت بشىء من توبيخ الضمير برهة، فلا شك فى أنها قد هدأت ضميرها بإقناع نفسها أنها إنما تعمل الآن على تنفيذ الاتفاقية التى تمت بين الأخوين من قبل.

نحن لا يمكن إلا أن نعجب بمحبتها، فإنها حصرت محبتها فى ذلك الابن الذى سوف لا تراه فيما بعد. وهى لم تبال بالنتائج التى قد يجرها عليها هذا، بل ضحت بكل شىء فى سبيل حصول ابنها الأصغر على البركة. «لعنتك على يا ابنى» (ع١٣). من أجله ضحت بزوجها وابنها الأكبر، ضحت بالمبدأ، ضحت بكل شىء. وبنفس هذا الإسراف فى المحبة، نرى النساء دواما يضحين بأنفسهن من أجل أحبائهن. وطالما كانت محبتهن حَرِيّة باتجاه آخر أفضل وأسمى، ومع ذلك فإن لها جمالها الممتاز. ليت أمثال هؤلاء يعرفن ذاك الذى قد سكبت كل من قديسة بيت عنيا وخاطئة بيت سمعان، الطيب الخالص الكثير الثمن لإسرافهما فى محبتهما له. ولم يكن فى تصرفهما أى إتلاف.

على أن محبة رفقة لم تكن مؤسسة على المبدأ السليم. لمثل هذه المحبة خطرها

الشديد، كألسنة النيران التى إذا اندلعت كسرت مصاريع النحاس وحطمت مغاليق الحديد وسببت الخراب والدمار. والمحبة، إما أن تكون بركة الحياة أو لعنتها. فإن كانت مؤسسة على قواعد الطهارة والحق والمبدأ، أو بمعنى أوضح، إن كانت مكرسة لله صارت بركة، أما إن كانت تنزع بالنفس إلى أهوائها البهيمية وشهواتها الوحشية - كما يفعل القرصان إذ يورد السفن مواضع الخطر - صارت لعنة. فلنحفظ قلوبنا فوق كل تحفظ طالما منها مخارج الحياة. وإذا خادعتنا التجربة وأوحت إلينا التصرف حسب مجرد المحبة البشرية الطبيعية، فلنذكر الأخطار التى أدى إليها هذا الطريق فى ذلك البيت قديما، بيت إسحق، كيف خُدِع الزوج، وأساء إلى الابن الأكبر، وأبعد الابن الأصغر فى ذلك النفى الإجبارى، وأساء إلى سمعة تلك الأم التى لا شك فى أنها لولا تصرفها الخاطىء لكللت بكرامة أمجد.

ولكن رفقة ليست هى الأم الوحيدة التى تصرفت هكذا. فنحن إذ نراجع حياتها، نجد الكثيرات من مثيلاتها اللاتى يرسمن الخطط، ويحكمن التدبير، ويتلاعبن بالحق والعدل ويضحين حتى بالمحبة الزوجية، إذا كان من وراء ذلك خدمة مصالح أبنائهن. وهن فى كل ذلك لا يدركن مقدار ما سيحصدن من جراء تصرفاتهن من التعاسة والشقاء فى بيوتهن، والبغض والحسد، والحزن على من كن ترجون أن تخدمنهم، والكآبة التى تحل بهن.

وبمعنى آخر غير الذى قصده مخلّصنا، إن أعداء الإنسان أهل بيته. إننا نؤثر تأثيرا بالغا جدا - لا بأقوالنا فحسب، بل بالروح التى تحيا بها أيضا - على من يعيشون معنا فى معيشة واحدة، على أقرب الناس إلينا، وطالما كان هذا التأثير، مع الأسف الشديد، هادما لأخلاقهم الفاضلة، كما تفعل الغازات فى الأزهار إذ تسبب لها الذبول السريع. فإنهم يَعثِرون إذ يروننا فى تكاسلنا وفتورنا وإهمالنا، كما تُعثرهم أقل كلمة باطلة يسمعونها منا. وهم يعثِرون إذ يروننا - وقد انصرفنا فى محبتنا - نحاول أن نذلل كل الصعاب أمامهم، ونحقق كل مطالبهم، ونجعل الحياة يسيرة أمامهم. إن نقطة واحدة من السم إذ تقطر فى القلب من أحد المحبين الذين وضعت فيهم الثقة، تكفى لإفساد الحياة كلها.

وإذا ما وضع أحد المحبين كأس السم على أفواهنا، شربنا منها غير مرتابين فى شيء. وإذا ما أشار أحد الوالدين أو الأصدقاء إلى إحدى الطرق، سلكناها واثقين ولو كانت

تؤدى إلى الهلاك. وإذا كانت طرق الضلال والغواية آتية إلينا عن طريق شخص كرفقة، لا يعود عليه شيء من المنفعة، إذا نجحنا فيها كانت أشد إغراء لنا. وبنوع أخص، إذا أظهر الذين يغروننا استعدادا لتحمل كل مسئولية فى حالة الفشل، وإذا اعترفوا بأنهم لا يدفعهم أى باعث سوى الغيرة على مصالحنا.

إذن فلنحرص كل الحرص فى كل اقتراحاتنا ونصائحنا التى نقدمها لمن تعودوا أن ينظروا إلينا نظرة الإجلال والاحترام، لئلا نعثرهم فى طريق الشر، سواء بقصد أو بغير قصد. وفى تلك الأحوال، لا يمكن أن تكون المحبة مرشدة وهادية إلا إذا كانت مقترنة بالبر والحق كمحبة الله. وبغير ذلك، فهنالك الخطر الأعظم فى تكرار غلطة رفقة، واقتفاء آثارها فى الإساءة إلى ابنيها وإلى نفسها وإلى إلهها.

(٣) ولقد وجدت هذه التجربة قبولا سريعا بسبب ضعف طبيعة يعقوب ومكرها:

لم يكن يعقوب شريرا بجملته، ولكنه كان مع الأسف ضعيفا. والضعف يتصل اتصالا وثيقا بالخطية التى يؤدى إليها حتما. إنه لم يفكر فى تدبير هذه المكيدة، وكان يفضل أن لا يقف هذا الموقف المخزى الذى بدا فيه كذوبا مخادعا، ولاشك فى أنه كان يخشى سوء العاقبة. ولكنه لم يجد فى نفسه من الشجاعة ما يكفى، لأن يقف موقف المعارضة أمام رغبات أمه الملحة، خصوصا بعد أن أكدت له استعدادها لتحمل كل مسئولية. ولعله كان يحاول تهدئة ضميره بأنه إنما يسلك هذا السبيل لكى يحصل على حقه، وأن عيسو ليس له الحق فى التفكير بأن يستعيد من أبيهما البكورية التى سبق أن باعها فعلا. لهذا فإن أمه عندما ضغطت عليه بما لها عليه من حق أطاعها كابنها (ع٨)، ضعف أمام إلحاحها، ولم يستطع رد طلبها باعتبار أن مخالفتها أمر غير جائز شرعا. ولكنه وجه نظرها إلى أمر كان يخشى أن يفضحهما «هوذا عيسو أخى رجل أشعر، وأنا رجل أملس، ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسى لعنة لا بركة» (ع١١و١٢). عندما يرتد المرء عن موقف الحق، ويصغى إلى النصائح التى تبدو فى نظره مناسبة ومجدية، فإنه يصبح قريبا من السقوط سريعا كسقوط الملائكة من السماء إلى جهنم.

هكذا كان سقوط يعقوب. إنه من الضرورى جدا أن نشدد على هذه الناحية كل التشديد خصوصا للشبيبة. طالما كنا واقفين جانب الحق كيوحنا المعمدان الذى تقدم إلى هيرودس وقال له: «لا يحل لك أن تأخذ امرأة أخيك»، فنحن واقفون فى حصن منيع لن يغلب . ولكن عندما نتراجع عن هذا الموقف قليلا، ونبدأ فى المناقشة مع المجرب، لعلنا نكتشف شيئا جديدا، فإننا نجد أنفسنا قد وقعنا فى قبضته، وصرنا كشاة تساق إلى الذبح. وفى هذه الغلطة - التى يتعرض لها كل الأشخاص الضعفاء - وقع يعقوب. وهكذا عندما أمرته أمه للمرة الثانية أن يسمع لقولها (ع١٣)، ويذهب إلى الغنم ويحضر جديين من المعزى «ذهب وأخذ وأحضر لأمه».

عندما نخطو الخطوة الأولى، نجد أنفسنا قد انزلقنا سريعا فى خطوات أخرى تتبعها تبدو فى نظرنا بأنها ضرورية، فالخطية لن تأتى منفردة. إن الخطوة الأولى فى الخطية تشبه الولد الصغير الذى تدفعه عصابة اللصوص من نافذة صغيرة إلى المنزل الذى يريدون السطو عليه، ومتى دخل الولد، تسلل يفتح الباب للعصابة بأكملها، أو هى كالحلقة الأولى فى السلسلة، إذ بواسطتها تجذب السفينة كل السلسلة. وإن كانت النعمة تجر وراءها نعما كثيرة، فإن الرذيلة تجر وراءها كذلك رذائل عديدة. لهذا نرى أن خطية يعقوب الأولى فتحت الباب لخطايا كثيرة.

فإنه حاول أن يقلد ملابس أخيه وجلده. فبينما كان الطعام يسوى، كانت رفقة تفتش فى خزانة عيسو لكى تأتى بثيابه الفاخرة معطرة بأنفس العطور كما هى عادة الشرقيين إلى اليوم. وبعد أن ألبسته تلك الثياب «ألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديى المعزى». كل ذلك فعلته بسرعة متزايدة لئلا يأتى عيسو. وعندما تم كل شىء استعد يعقوب كى يلعب دوره.

وأول ما فعله أنه خدع أباه بكذب صراح «أنا عيسو بكرك. قد فعلت كما كلمتنى، قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك».

ثم إنه استخدم اسم الله زورا وبهتانا للتستر على أضاليله. فإنه عندما سأله اسحق عن كيفية عودته بهذه السرعة، تجرأ بأن يقول: «إن الرب إلهك قد يسر لى».

وأى انزعاج قد ملأ قلبه عندما وجد نفسه مرغما على أن يتابع خداعه وكذبه وأضاليله

خطوة فخطوة، عالما بأنه مدفوع بتيار جارف إلى محيط من القاذورات، ومع ذلك فإنه لم يجرأ على الوقوف لصد هذا التيار، بل وجد نفسه مضطرا إلى التقدم للتعمق فى ذلك المحيط؟ ولا شك فى أن قلبه جمد عندما وجد أن أباه قد خامرته الشكوك وشك فى صوته وصمم على أن يجسه ويشمه ويقربه إليه. وما الذى كان قد ربحه يعقوب لو أن الله ضربه فمات. وهيهات أن تستطيع كلمات البركة التى خرجت من فم أبيه أن تبدد الأحزان التى امتلأ بها قلبه. ولا شك فى أنه قد كره نفسه إذ ذاك، وكان يتمنى أن تبادله مركزه أدنى الحشرات أو أطفال العبيد المعدمين الذين كان يراهم مغتبطين فى لعبهم ولهوهم. ولعله رأى أن الشمس قد أخفت نصف نورها.

ورغم كل ذلك، فهذا هو الإنسان الذى صار رئيسا عظيما أمام الله، والذى استطاع أن يجاهد مع الله. وإن كان قد أتيح له أن يصل إلى هذه الدرجة السامية، ألا يوجد رجاء لنا نحن أيضا الذين نشبهه من نواح كثيرة؟ فإننا إن اضطجعنا بين حظائر المواشى، نستطيع أن نكون كأجنحة مغشاة بفضة وريشها بصفرة الذهب (مز٦٨:١٣). وإن كان الرب القدير قد استطاع أن يصوغ من هذه الطينة إناء جميلا كهذا، فما الذى لا يستطيع أن يفعله بنا نحن؟ إن رجاءنا الوحيد هو فى تسليم ذواتنا إليه بخضوع تام، واثقين من أننا لا قيمة لنا ولا نفع فينا، ونستحق أن نداس تحت الأقدام لا أن نصاغ بيديه، وموقنين أيضا بأنه لو لم يتدخل بعمل نعمته فينا لهلكنا. ومستعدين أيضا أن نقدم إلى العالم ما يقدمه إلينا، فإن أردنا أن نتمم هذا ونسلم ذواتنا لله، وإن ارتضينا أن يتمم إرادته فينا وبنا وحولنا، فحينئذ، وحينئذ فقط، يستطيع الله أن يصوغ منا آنية للمجد والكرامة، آنية نافعة مستعدة لكل عمل صالح. أيها الأخ العزيز لا تعطل عمله، ولا تضطره بأن يصوغ منك وعاء أدنى مما يمكن أن تكون (إر١٨:٤).

لكن اذكر بأن الله يحب أن يغرس فيك الطبيعة التى هذبها فى يعقوب. وعندما نتحدث عن تهذيب الله، يجب أن نحرص كل الحرص فى التعبير عما نقصد لئلا نخطىء الحديث. فإنه رغم كل الأخطاء التى ارتكبها يعقوب، لابد أنه كان يحمل طبيعة أسمى مستعدة لقبول تهذيب الله، وقابلة للسمو حتى يصير «إسرائيل». لك أن تدعو هذا «إيمانا» أو سمه ما شئت، ولكنه

كان موجودا. ولقد كان توفر هذه الطبيعة الأسمى فى حياة يعقوب هو الذى جعل علاقته بالله تختلف عن علاقة عيسو بالله، وهو الذى مكنه من السمو إلى مستوى روحى سام لم يكن فى مقدور عيسو الوصول إليه لعدم قابليته إياه.

لا شك فى أن إله المحبة كان يحب عيسو. ولكنه لم يكن متوافرا فى طبيعته ذلك الإيمان أو عوامل النبل التى انغرست بالإيمان فى قلب أخيه. ضع قطعة من الحجر فى زهرية وغطها بطبقة طينية، وفر لها الماء ونور الشمس والهواء فإنها لا تبقى حجرا أبدا كما كانت. فلو أن عيسو جاز كل الظروف التى جازها يعقوب لبقى عيسو أبدا كما كان، ولما أمكن بتاتا أن يصير إسرائيل ما لم تتوفر تلك الطبيعة الأسمى التى تقترن دائما بالإيمان. يمكنك أن تنمى موهبة الذكاء بالتهذيب والتعليم والثقافة العقلية. ولكن ما المنفعة من أحسن وسائل التربية والتعليم إن لم تكن الموهبة موجودة فعلا؟ يمكنك أن تنمى جرثومة الحياة الأولية، ولكنك لن تستطيع أن تخلقها إن كانت غير موجودة. هكذا لا يمكن أن تفعل نعمة الله شيئا فى الحياة البشرية ما لم تكن متوفرة فيها جرثومة تلك الطبيعة الإلهية التى تحدث عنها الرب مع نيقوديموس «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح».

فإن كنت تشعر بأن لك طبيعة مدنسة تميل إلى الأخطاء التى تشوه صفات يعقوب، فدقق البحث لكى تعلم إن كان لك خلافها تلك الطبيعة الجديدة المولودة من الله، والتى يمكن تهذيبها لتصير على صورته ومثاله. إن وجدتها متوفرة، فاشكر الله واطلب من الروح القدس أن ينفرك من الطبيعة اليعقوبية حتى لا تفعل ما تريد (غل٥:١٧)، وحتى يعجل طبيعة إسرائيل فيك. وإن لم تجدها متوفرة، فالواجب يحتم عليك أن ترفع عينيك فى الحال إلى حمل الله الذى أسلم من أجل خطاياك وأقيم لأجل تبريرك. وعندئذ تجد أن بداية الطبيعة الأسمى الجديدة قد خُلقت فيك بالروح القدس فى اللحظة التى ترفع فيها أول نظرة صادقة بالإيمان إلى الرب يسوع.



السلم الملائكى (تك ٢٨)

ولو كنت هائما شريدا طريدا كالأثيم الذميم
تحيط بى ظلمة الليل البهيم،
لا يسند رأسى حجر غشيم،
إلا أننى فى أحلامى أجد نفسى،
قريبا من ربى الكريم،
قريبا منك ياربى.

س.ف. أدامز

عندما أدرك عيسو أن يعقوب اغتصب بركته أبغضه واعتزم قتله. وهذا أقل ما كان ينتظر من شخص مثله متهور ومندفع وصلب الرأس. وصل رنين هذه التهديدات إلى أذنى رفقة. فامتلأ قلبها خوفا لئلا تُعدم ولديها فى يوم واحد - يعقوب، حدقة عينها، بيد أخيه، وعيسو باضطراره أن يكون طريد العدل الإلهى كقايين بسبب قتل أخيه.

الشخص المتهور المندفع أقل خطرا من ذاك الذى لا تبدو منه أية علامة للبركان الثائر فى داخله، وتعرف أن ثورة الغضب فى شخص كعيسو، سرعان ما تنفجر فى كلمات وتهديدات، وسرعان ما تخمد أو تلتهم نفسها بنفسها لعدم توفر الحطب. وتعرف أن كل شىء لابد أن ينسى لو أن يعقوب قد تغيب قليلا. لذلك اعتزمت رفقة أن يعبر يعقوب الصحراء إلى حاران ليصرف وقتا مع أخيها لابان، الذى اغتربت عنه منذ ذلك اليوم التاريخى الذى ارتحلت فيه مع عبد إبراهيم إلى وطنها الجديد بآمال صباها الجديدة. لم تستطع أن تذكر لزوجها كل

الأسباب التى دعتها إلى هذا التفكير، لئلا يؤدى ذلك إلى الشر بدل الخير. ولكنها التمست بعض المعاذير الواضحة والمقبولة، وهى الحصول على زوجة صالحة ليعقوب حفظا للنسل المقدس من أن يتدنس.

لم يكن أمام إسحق إلا قبول الطلب «فدعا إسحق يعقوب وباركه وأوصاه، وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان. قم اذهب إلى فدان أرام وخذ لنفسك زوجة من هناك، من بنات لابان أخى أمك. والله القدير يباركك» (ع١-٣). وقام يعقوب والدموع تنهمر من عينيه «وخرج من بئر سبع وذهب نحو حاران». وفى طريقه أعلنت إليه هذه الرؤيا - رؤيا السلم الملائكى.

(١) الظروف التى أعلنت إليه فيها هذه الرؤيا:

١ - كان يعقوب وحيدا. لم يكن فتى يافعا، فقد كان فى سن الرجولة. ولكن يقينا أن هذه كانت أول مرة يغادر فيها وطنه. لقد كان أخوه صيادا ماهرا، وطالما توغل فى قلب الصحراء اقتفاء لآثار الغزال، وقضى الليالى فى الأحراش والغابات. وفى ذلك كان يجد راحة وبهجة وحبورا. أما يعقوب فلم يسبق أن تمتع بمثل هذه الاختبارات. كان لا يجد فى الوحدة شيئا من التسلية، بل كان يحب أن يسمع نغمات أصوات البشر والحركة الدائمة فى المحلة.

وفى الصباح المبكر جدا، إذ بدأ رحلته، لابد أنه قد امتلأ إحساسا مبهجا باعتماده على نفسه، وشعورا عذبا جديدا. ولكن إذ بدأ الليل يرخى سدوله على العالم، وبدأت الكواكب تلمع فى كبد السماء، وإذ كانت عينه لاتقع إلا على الصخور المحيطة به، والمتناثرة على الأرض البلقع التى افترشها، وإذ كان لا يحمل خيمة تقيه من التأثيرات الجوية، ولا نارا يستدفىء بها، ولا وسادة يسند عليها رأسه - سرت فى أعماق نفسه إحساسات بالوحدة والوحشة والكآبة. كان ذلك هو وقت الله المناسب عندما اقترب إلى روحه وقال له: «ها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب، وأردك إلى هذه الأرض، لأنى لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به» (ع١٥). وهذا ما كان ولا يزال يحصل للبشر بين آونة وأخرى، فإننا ينبغى أن نعتزل عن غوغاء العالم ومشاغله إن أردنا أن نرى طلعة الملائكة البهية، أو

نسمع نغمات السماء الشجية. اخل الآن إلى نفسك برهة، واذكر الليلة الأولى التى تغربت فيها عن وطنك، سواء كطالب أو صانع أو موظف أو خادم. ولعلك تجد أن تلك الليلة كانت ليلة تاريخية فى حياتك، وكانت ليلة مقدسة حل فيها الرب كل أوصال محبتك للعالم. وحولها إلى شخصه المبارك فتأكدت من وجودك فى حضرته، والتصقت به بشكل لم تعهده من قبل.

٢ - وكان يعقوب أيضا واقفا على عتبة الاستقلال والاعتماد على النفس. إنها لساعة رهيبة تلك التى يبدأ فيها المرء بالاعتماد على نفسه، إذ يكون كمن يعوم على وجه الماء بدون عوامة، وكربان السفينة الذى يرى أن الأمواج أوشكت أن تتقاذفها من كل ناحية. تمر أيام الطفولة بهدوء لخلوها من المسئوليات، والزهرة يحميها غلافها الخارجى الأخضر، وفراخ الطيور تقوتها وتحميها عناية الوالدين التى لا تعرف الكلل. على أن تلك الحال لا تدوم طويلا، ولن تجد من يرضى بأن يتنازل قبل الأوان عن حال الاعتماد على الآخرين ليكون مسئولا عن نفسه، معتمدا على ذاته، ولابد أن يأتى أخيرا ذلك اليوم الذى فيه يخرج الطفل إلى العالم ليكسب قوته ويحرز لنفسه شهرة معتمدا على نفسه وحده فى كل ما يفعل وكل ما يختار، ولا شك فى أن تلك الفترة - فترة الانتقال من حال إلى حال - فترة خطيرة.

على أنه فى تلك الفترة يتقدم القدير - كعابر سبيل - إلى النفس ليقدم إلهيا شخصه المبارك لرفقتها فى ذلك الطريق الذى لم تسلكه من قبل. وطوبى لمن يقبل تلك المعونة التى تقدم إليه، وينقل الشعور بالحاجة إلى المعونة وإلى الاعتماد على الآخرين من الأب الأرضى إلى الآب السماوى. إنه لأمر نافع جدا أن نُترك من الآباء والأمهات، إن كان الرب يضمنا. وعندما يرغب المرء رغبة صادقة فى أن يضمه الرب، فإنه لا تبقى بعد حاجة للاضطراب أو الاهتمام، لأنه فى اللحظة التى يسلم فيها نفسه لمحبة القدير يتقبلها، ويتحمل كل مسئولية ويحقق كل رغباتها. وهنالك شرط واحد «اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم». وكما قالت إحدى الملكات الصالحات مرة لأحد حاشيتها «عندما تهتم بمصالحى، فإننى أجعل مصلحتك موضع عنايتى واهتمامى».

ليت كل أولاد الله يتعلمون كيف يسلمون جميع اهتماماتهم واضطراباتهم ومشاغلهم ومتاعبهم للرب الحنون فى اللحظة التى تباغتهم فيها، واثقين أنه يتقبلها من أيديهم مباشرة. إذن، فلا داعى للشعور بأن كل شيء متوقف على اعتمادنا على عقولنا المضطربة أو قوتنا الخائرة، لأن الرب نفسه يتعهد بأن يملأ كل احتياجاتنا حسب غناه فى المجد. إنه لا يوجد استقلال حقيقى للمؤمن، لأن الاستقلال عن المسيح يشبه انفصال الغصن عن الشجرة ليجف، وسر الراحة والإثمار والقوة كائن فى الاتحاد به والثبات فيه، ولن يستطيع الزمن ولا كل قوات الجحيم أن تفصله عنه.

٣ - وكان يعقوب أيضا خائفا ومنزعجا. لأنه ماذا كان يمنع عيسو من أن يتعقب آثار أخيه عندما سمع بهروبه، خصوصا وقد كان خبيرا بكل تلك الأصقاع، وكان يعدو بسرعة الغزال؟ أو ماذا كان يمنعه من استخدام الكلاب للتتبع آثاره؟ وفضلا عن ذلك، فقد كانت الأرض ممتلئة باللصوص والوحوش المفترسة. فى هذه الظروف، هدأ الرب روع يعقوب وبدد مخاوفه، بأن أظهر له أن تلك البقعة الموحشة كانت مكتظة بجنود الملائكة المستعدة أن تحل حوله لحراسته وحفظه من كل أذى. إن أكثر الأمكنة وحشة وعزلة أكثرها أمنا وسلاما - كأشد الأمكنة ازدحاما - طالما كان الرب فيها. فإن رفقة الله لنا هى التى تحفظنا سالمين وسط المدن المزدحمة، كما تحفظنا إذا ما استلقينا وسط الفيافى والقفار. فى الجب الأسفل حيث ألقى النبى الصادق الأمين (مراثى٣:٥٥)، وفى ظلمات السجن ينتظر الرسول الكريم والبطل العظيم مصيره (أع٢٣:١١)، وفى السفينة المعذبة التى تهددها الأنواء كل لحظة بتحطيم سريع (أع٢٧:٢٤)، تأتى تلك الكلمة المطمنة «لا تخف» من ذاك الذى لا يكذب. وعندئذ نستطيع أن نقول بكل ثبات وهدوء واطمئنان «الرب معين لى فلا أخاف، ماذا يصنعه بى إنسان»(عب١٣:٦).

(٢) العناصر التى تكونت منها هذه الرؤيا:

لقد كان روح الرب يحمل تعاليمه لعبيده دوما فى لغة مستعارة من البيئة التى تحيط بهم. فكتابات يوحنا عن السماء مملوءة من آثار بحر إيجه الذى كثيرا ما كان يبدو حول

أطراف الجزيرة التى كان متعبدا فيها «كبحر من زجاج مختلط بنار» (رؤ١٥:٢). ومزامير داود كثيرا ما وردت فيها إشارات للبرارى والقفار والجبال التى تكتظ بها يهوذا، والتى كتب فيها داود كثيرا من هذه المزامير، ورؤى دانيال تتلمس فيها صورة الجبابرة الذين كان يراهم فى بابل، وعاموس يصوغ نبواته فى قالب مستعار من حياة الفلاحين وسكان القرى. وهكذا كان الحال هنا أيضا.

كانت بيت إيل بقعة جرداء فى قلب فلسطين. ولم يكن فيها شيء يستحق الذكر. ولذا دعاها كاتب سفر التكوين «مكانا» (ع١١)، بل كان أهم ما تحفل به سفوح الجبال ومنحدراتها.

وإذ ارتحل يعقوب إلى الشمال، سرعان ما وجد أن الليل قد داهمه فى ذلك «المكان» الموحش القفر. ولم يجد أمامه مطلقا سوى أن يضطجع على تلك الأرض القاسية، ويتوسد أحجارها. وهكذا نام، وإذ هو نائم رأى حلما، وفى حلمه رأى سلما ارتكزت قاعدته على المكان الذى كان مضطجعا فيه واتصلت رأسه بالسماء، وعلى هذا السلم صعدت ونزلت الملائكة الذين اكتظ بهم ذلك المكان الموحش القفر، والذين وجهوا كل عنايتهم لذلك النائم أسفل السلم. لم يكن هذا هو كل الأمر، فمن أعلى السلم سمع يعقوب صوت الله كنغمات الموسيقى.

وهنا نرى ثلاثة أمور جوهرية:

١ - السلم :

ربما كان يسود يعقوب فى ذلك الوقت شعور بحقارته وخطيته، كما كان يحزنه شعوره بتغربه عن وطنه، ولذلك فقد كان مبهجا جدا لنفسه أن يعلم بأن هنالك صلة بينه وبين الله. ليست الأرض كوكبا هائما على وجهه، بل هى متصلة بالسماء، لا بتلك السلاسل الذهبية التى يتغنى بها بعض شعرائنا، ولا بالسلاسل الحديدية التى تربط السفينة بمرساها، ولا بالربط الحريرية لقانون الجاذبية التى تربط كل الكواكب، بل بسلم، وهذا يتضمن الصلة والشركة والعبور من أحد الطرفين إلى الآخر.

والسلم هو يسوع المسيح نفسه (يو١:٥١) فإنه قد أخذ طبيعتنا المكونة من التراب، وفى تلك الطبيعة صعد من جبل الزيتون إلى عرش الله «فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة» (أف١:٢١)، وإذ فعل هذا ترك طريقا من النور خلفه، وصار هو «الطريق» الذى به نستطيع أن نصل إلى «العلى المرتفع ساكن الأبد القدوس اسمه» (إش٥٧:١٥)، ولن يوجد طريق آخر غير هذا الطريق «ليس أحد يأتى إلى الآب إلا بى» (يو١٤:٦)، وما الإغفال عنه إلا الإغفال عن الواسطة الوحيدة التى بها يستطيع الخاطىء أن يأتى إلى الحياة، وإلى نور الله ومحبة الله. على أن أضعف إنسان وأشر خاطىء يستطيع أن يصعد بيسوع من قرار هاوية جهنم إلى عتبة عرش الله الأبدى.

إن أبناء الجهل وأبناء الليل

يستطيعون أن يسكنوا فى النور الأبدى

بواسطة المحبة الأبدية.

يخبرنا ملتون[١] فى إحدى قصائده الرائعة كيف أن الخطية والموت تبعا آثار الشيطان، ورصفا خلفه طريقا متسعا إلى الهاوية المظلمة، التى أقيمت على خليجها ذى المياه الدائمة الغليان، قنطرة متسعة اتساعا عجيبا تصل جهنم بعالمنا الضعيف هذا، وبذلك تستطيع الأرواح الشريرة أن تعبر تلك القنطرة - ذهابا وإيابا - قادمة من جهنم لكى تجرب البشر المساكين. هذا خيال، أما الحقيقة فهى أنه «يوجد وسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح» (١تى٢:٥).

عندما تتلبد السماء بالغيوم، لا نستطيع أن نبصر خيوط العنكبوت التى تكون قد امتدت كسلم من شجرة إلى أخرى. ولكن عندما تضىء الشمس بنورها الوهاج، فحينئذ تتكشف أمامنا تلك الخيوط. وهكذا أيضا عندما يرفع المرتاب نظره إلى فوق، لا يستطيع أن يرى رابطة أو صلة بين كوكبنا الأرضى هذا وبين مركز الكون كله حتى تنفتح عيناه فيرى السلم الذى تخلف وراء المخلص عند صعوده إلى السماء. فشكرا لله لأننا لم نترك كريشة فى مهب

---

[١] أحد مشاهير شعراء الإنجليز.

الريح تحت رحمة أى تيار جارف. فإن هذه السفينه السوداء موثقة كل الطريق بتلك السفينة المضيئة الوهاجة - سفينة النعمة السماوية، نعم، وهناك لوح خشبى موصل بين السفينتين.

٢ - الملائكة :

كانت الملائكة تصعد: رمزا لصعود صلواتنا، وكانت تنزل: رمزا لنزول الجواب من الله. يذكرنا الحديث هنا بالأعصاب الناقلة (أو الداخلة) والأعصاب الموصلة (أو الخارجة) فى الجسد، فالأولى تنقل إحساسات الألم الشديد من الأطراف وتصعد بها إلى الرأس، والثانية تنقل الإرشاد بجميع الحركات وتنزل بها إلى الأطراف. يحسن بنا أن نكثر التأمل فى خدمة الملائكة وعنايتها الفائقة. فهى تتابع السير مع كل قطار من قطارات السكة الحديد، ومهما تزايدت سرعته، إن كان يحمل أحد أولاد الله لكى يوصله سالما إلى غايته. وهى ترافق كل سفينة تشق طريقها وسط الأمواج المتلاطمة، متى كانت تحمل أحد ورثة الخلاص، لكى توصله إلى الميناء التى يجب أن يكون فيها. وهى ترابط حول كل مدينة بخيل ومركبات نارية، ومهما كانت محاصرة، متى كان فيها خدام الله. وهى تخدمنا وتقضى لنا كل احتياجاتنا. وهى تجهز لنا طعاما شهيا مقويا حينما نرتمى فى الصحراء منهكى القوى ونطلب الموت لأنفسنا. وهى تهمس بكلمات التعزية فى قلوبنا المضطربة. وهى تحمل أرواحنا تصعد بها فى ساعة الموت. كل ذلك محبة لنا، لا على سبيل أى جزاء نستحقه. الله يوصى ملائكته بنا لحفظنا فى كل طرقنا، وعلى أياديها تحملنا (مز٩١:١١و١٢)، «ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم» (مز٣٤:٧). «أليس جميعهم أرواحا خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب١:١٤).

ويالها من تعزية بالغة قد نالها يعقوب. لقد أدهشه جدا أن يرى ذلك المكان الموحش القفر أصبح مكتظا ومزدحما كازدحام «بوابة» إحدى مدن الشرق التى تحتشد فيها الجماهير الغفيرة للبيع والشراء، ولكنه كان «باب السماء» لأنه قد بدا له كأن سكان السماء كانوا حالين حوله، صاعدين ونازلين، والجميع منشغلون فى خدمة البشر بإدخال احتياجاتهم وطلباتهم وإخراج بركات الله المتراكمه، بذلك المكيال الفائض جدا الذى اعتاد الله أن يكيل به لكل

أولاده. فيجب أن لا نستسلم ثانية للشعور بالوحدة والوحشة إذ نذكر أننا في الساعة التي نظن فيها أننا في عزلة عن كل البشرية، نعيش وسط جمهور عظيم جداً من الملائكة. وإذا ما تجردت إحساساتنا من كل مشتهيات الخطية فلابد أننا نستمع إلى أغنياتهم الحلوة وتسابيحهم وترانيمهم، وننظر إلى هيئتهم.

٣ - صوت الله :

لقد حقق الله أفكاره. كان يعقوب يشعر بالوحدة، أما الله فقال له «ها أنا معك» (ع١٥). كان يخشى عيسو، فقال له الله «وأحفظك».[+] وكان لا يعلم شيئاً عن الصعوبات التي تنتظره، فوعده الله بأن يرده سالماً «أردك إلى هذه الأرض».[+] وكان يظن بأنه قد أصبح محروماً من كل الإخوة والأصدقاء، ولكن الله أعطاه هذا التأكيد «إني لا أتركك».[+] وكانت المظاهر تبدو كأنها تناقض الوعد الإلهي، ولكن الله قال له «لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به».[+] هذه كلمات ثمينة، ولكنها لا تأتي إلا للذين يضطجعون عند أقدام ذلك الصليب العجيب الذي يصل الأرض بالسماء. فإن كان مكانك هناك استطعت أن تطالب، بدالة عظمى، بكل ما تتضمنه هذه الكلمات من تعزية.

أليس مما يلاحظ باهتمام أن يعقوب لم ير هذه الحقائق المجيدة حتى نام؟ لقد كان الله يرقبه باهتمام في البرية قبل نومه كما كان يرقبه بعد نومه، ولكن يعقوب لم يدرك ذلك «حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم».[++] إنه لم يعلم ذلك إلا بعد أن نام. لقد غلبه النعاس تدريجياً وطواه بين ثناياه. وزالت حرارة الحمى تدريجياً، وهدأت ثائرته وهجع اضطرابه. وتعمق في السكينة والهدوء، ونسى نفسه الثائرة المنزعجة المضطربة التي أتى بها من بئر سبع. وبينما هو نائم، تقدم إليه الله فأحس برفقته الأبدية التي لم يكن يعلم عنها شيئاً بعد. تقدم إليه بهدوء ورقة، تقدم إليه بسعة، فوقه وحوله. فرأى مجد الله، وسمع صوته، وصار المكان الموحش القفر ممتلئاً من رهبة الله وحضرته.

[+] ع١٥ (مكتبة المحبة).

[++] ع١٦ (مكتبة المحبة).

إن لنا فى هذه القصة القديمة درسا نتعلمه عن: كيف انتظر الله حتى نام عبده قبل أن يعلن له سر حضوره. أليس حقيقيا أننا فى بعض الأحيان يجب أن ننام لكى نرى؟ ألا يجوز أن نكون متيقظين جدا ومنتبهين لأمور هذا العالم الزائلة؟ ألا يحسن أن نغمض أعيننا عن تلك الأمور ونتناساها لكى تستطيع بصيرتنا الروحية أن تنظر الأمور الأبدية غير المنظورة؟

عندما يلعب جماعات الأطفال فى أحراش الغابة، وتدوى أصواتهم فى اللهو واللعب والضحك تسكت أصوات الحيوانات ويبطل تغريد الطيور. ولكن عندما ينصرفون إلى سبيلهم، تبدأ الحيوانات تنبح والعصافير تنادى بعضها البعض، وتخرج حيوانات جميلة كثيرة من مخابئها وراء الأشجار. «ادخل مخدعك وأغلق بابك»، «إنما لله انتظرى يا نفسى» (مز٦٢:٥).

من المستحيل أن نسير مع الله ما لم تكن لنا هذه الفرص التى فيها نرى تلك الرؤى الهادئة. يعيش البعض حياة الضعف كريشة فى مهب الريح، يُحملون هنا وهنالك بكل تيار، لأنهم لا يخصصون لأنفسهم أوقاتا يخلون فيها لأنفسهم من مشاغل الحياة وهمومها. فنحن فى حاجة إلى أن نتخلص من أنفسنا وهمومنا ومصالحنا وشخصياتنا لكى نتهيأ لقبول رؤى الله. وإن ظفرنا بهذا النوم المبارك، كان ذلك عطية من الله استجابة لثقتنا فيه واتكالنا عليه.

وسنعالج فى الفصل التالى مقدار ما كان لهذه الرؤيا العجيبة من التأثير فى نفس هذا الإنسان المنزعج النفس والمضطرب القلب. ولكن قبل أن نختم الحديث فى هذا الفصل، نتوسل إليك أن تتأمل - وأنت تقرأ هذه الكلمات - فى ذلك السلم الرمزى الذى ينزل من عرش الله إلى المكان الذى أنت فيه مهما كان وضيعا. قد يكون ذلك المكان أرضا خربة خاوية، أو كوخا حقيرا، أو مضجعا فى سفينة أو مقاما وقتيا، أو فراش الألم والمرض. ولكن يسوع المسيح يستطيع أن يجدك فى كل مكان ويأتيك حيثما كنت. إن أحد قضيبى ذلك السلم هو ذهب لاهوته والقضيب الثانى هو فضة ناسوته، أما الدرجات فهى سلسلة الحوادث من مهد بيت لحم إلى يمين العظمة حيث هو الآن جالس. وهذا السلم محمل بالبركات من أجلك. فليتك تستطيع أن ترسل أثقال خطيتك وهمومك ومخاوفك مع الملائكة الصاعدة (صلاتك وإيمانك)، لكى تستطيع أن تتقبل فى قلبك جيوش الملائكة النازلة، ملائكة السلام والفرح والمحبة والمجد.



العزم النبيل (تك ٢٨)

غمت فـــحلمت أن الحـــيــــاة جــــمــــيلة،
واســتــيــقظت فــأدركت أن الحــيــاة مــهــمــة يجب أن نؤديهــا،
أو كــــان حلمك حــلــيتــهــذ اضــغـــاث أحـــلام؟
كلا، بل تشجع أيها القلب الحزين وجد واعمل، فتجد أن حلمك يقين.

✣ ✣ ✣

إن الأحـــلام تـزداد قـــداســـة إذ تـتـحـــول إلى عـــمـل،
والأعـــمـــال تـزداد جـــمـــالا عـلى ضـــوء تلك الأحـــلام.
ولكـن حـــيـــثـــمـــا افـــتـــرقت الأعـــمـــال عـن الأحـــلام،
صـــار كـــلاهـمـــا عـــديم الجـــدوى.

ا.ا. بروكتر

نحن الآن ندرس كيفية تربية وتهذيب نفس بشرية فى رواية يعقوب الذى أصبح إسرائيل الأمير. ولكن قبل أن تتأمل فى مقدار ما تستطيع أن تستفيده من هذا الدرس، يجب أن تكون واثقا كل الثقة من أن فيك ما يؤهلك لمثل هذه التربية والتهذيب. فالتهذيب معناه إبراز المواهب الكامنة كإبراز الرائحة العطرية والألوان البهية والجمال الفتان من جذر الزهرة - الذى قد يبدو نتنا وميتا - بعد التصليح والتهذيب. ومهما ازدادت التربية، فإنها لن تستطيع أن تبرز هذه المواهب من حجر أصم. ولكنها تفلح فقط عندما تكون جرثومة الحياة كامنة فى

القلب. لذلك فإن عمل الله لابد أن يكون مصيره الفشل – من جانبك أنت – ما لم تتوفر فى داخلك – كما توفر فى يعقوب – بداية حياة أشرف من تلك التى ورثتها بالطبيعة. وبالإجمال هل حصلت على الطبيعة الجديدة؟ هل غرست فيك – بروح الله القدوس – بذرة حياة جديدة مجيده؟ هل تجد فى داخلك شيئا ليس من نفسك ولا من إنسان ولا من مشيئة لحم بل من الله؟ إن كان الأمر كذلك، فإنك تستطيع أن تنتفع من دراسة معاملة الله مع يعقوب الذى لم يكن فى تكوينه الأصلى الشيء الكثير الذى يستحق الإعجاب. كانت هنالك ثلاث خطوات فى معاملة الله مع هذه النفس الوضيعة الماكرة، وفى كل هذه الخطوات الثلاث نجد تطبيقا عاما.

أما الخطوة الأولى فكانت أن الله كشف ليعقوب حقيقة نفسه. لقد كان ممكنا أن يظل غروره بنفسه سنوات طويلة وهو يجهل الشر الرابض فى قلبه. ولذا سمح الرب أن تعترض حياته تجربة شديدة كانت سببا فى أن تكشف له حالة قلبه التعسة.

ضع صخرة بارزة وسط مجرى النهر، تعلن لك اتجاه التيار الضعيف. سلط نورا قويا على كهف مظلم، يهرب منه سكانه المساكين صارخين بفزع إذ يبصرون الحشرات والحيوانات البغيضة التى انسلت وحلت حولهم.

هذه أول خطوة لصحة النفس. يجب أن يرسل إلينا ناثان لكى يزيح الستار عما توارى فينا من شر وقبح، ولكى يحول الكلام من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطَب، ويوجه الاتهام الينا بالذات «أنت هو الرجل». إن كنت قد بدأت – مؤخرا – ترى شر قلبك، وتدرك المخازى التى ما كان يخطر ببالك أنك ستجسر على ارتكابها، وتكره نفسك كما فعل أيوب،[١] فحينئذ تشجع وأبشر خيرا. فإن الله قد مس قلبك وبدأ فيه عملا لا يمكن أن يتركه حتى «يوقفك أمام مجده بلا عيب فى الابتهاج» (يه٢٤). إن أول وأهم عمل للروح القدس فى النفس البشرية هو أن «يبكت على خطية» بعد إقناعها بها.

أما الخطوة الثانية فكانت أن الله سمح أن يتحمل يعقوب خسارة كل ثروة أرضية وكل صداقة بشرية. لقد اشتدت الضيقة على نفس الابن الضال – فى تلك الكورة البعيدة –

---

[١] راجع أى، ص٣ (مكتبة المحبة).

ووصلت إلى أقصى حدودها، «فلما أنفق كل شيء حدث جوع شديد في تلك الكورة فابتدأ يحتاج. فمضى والتصق بواحد من أهل تلك الكورة فأرسله إلى حقوله يرعى خنازير، وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذى كانت الخنازير تأكله فلم يعطه أحد».[١] ومع ذلك لم يكن بأشد تعاسة وبؤسا مما كان يعقوب فى تلك اللحظة. رأينا فى الفصل السابق أنه كان وحيدا، موحشا، فى شدة الخوف والفزع. لم يكن يملك إلا متاعا ضئيلا أو قل لا يملك شيئا، كان يملك دهنة من الزيت (ع١٨) وعصا فى يده (ص٣٢:١٠). وكان يخشى غضب أخيه. وكان مضطرا أن يقنع بحجر يسند به رأسه فى ذلك القفر البلقع. على أنه لم يكن هو آخر من يجب أن يبارك الله إلى الأبد لأجل حرمانه من أشياء كثيرة يراها ضرورية جدا لحياته وكيانه. إن ذلك الصوت الهادىء الخفيف لا يُسمع إلا عندما تخفت كل الأصوات. والنجوم الفضية اللامعة لا تُرَى إلا فى الظلام. وعندما تُنهك قوى الصيادين المساكين الليل كله ولا يمسكون سمكة واحدة، يكونون قد صاروا أهلا لرؤية ذلك الذى يحبهم واقفا على الشاطىء فى الصباح الباكر جدا.[٢] فلا تتعجب إن رأيت النفس التى ترزح تحت التجارب قد زادتها العناية تجارب أشد.

وأما الخطوة الأخيرة، فكانت أن الله أعلن ليعقوب محبته بكل وضوح وجلاء «وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء». وترمز هذه السلم إلى محبة الله. كانت هذه المحبة تحيط بيعقوب - من كل ناحية فى كل أيام حياته الماضية - بأريجها العطرى، ولكنه لم يتحقق منها، ولم يخضع لها، ولم يبادل هذه المحبة بالمحبة. أما الآن، فقد تجمعت وتركزت فى هيئة واحدة محددة، ودُفعت إليه دفعا لكى لا يكون هناك مناص من رؤيتها. وفى تلك الساعة التى كان مقتنعا فيها بخطيته وعوزه، وجد أنه فى أشد الاحتياج إليها، احتياج المرء إلى سلم يصعد عليها من هاوية سحيقة هوى إليها أو من بالوعة يأس تردى فيها. لهذا أسرع للتعلق بها طلبا للنجدة، وحاول التسلق عليها ليرجع إلى النور.

هل تستطيع أن تعيد إلى ذاكرتك تلك اللحظة التى انسكبت فيها محبة الله فى قلبك

---

[١] انظر لو١٥:١٤-١٦ (مكتبة المحبة).

[٢] راجع يو ٢١:٣-١٣ (مكتبة المحبة).

لأول مرة؟ لقد كنت مقتنعا تمام الاقتناع بخطيتك. وكنت تخشى لئلا يبطش بك غضب الله المنتقم الجبار فى أية لحظة، وكنت تتمنى لو أنك استطعت أن تكون كواحد من الحيوانات التى تحيط بك، ترزح تحت أعباء الهموم والاضطرابات الكثيرة، وفى تلك استوقف نظرك صليب المسيح. كنت فى بداية الأمر تنظر إليه نظرة تعجب واندهاش، ولكنك إذ تفرست فيه، فى تلك اللحظة ثبت فيه نظرك وانشغل به قلبك. رأيته مجسما تحت نور السماء، وشعرت بأن المحبة الإلهية يشع نورها من عينى المصلوب، ويفيض نبع بركاتها من كل جرح مفتوح، وينطق بنغماتها الموسيقية ذلك الصوت المتهدج الخافت - وإذ أطلت التأمل، امتلأ قلبك بهذه الحقيقة - إن كل ذلك صار لأجلك. ومن ثم انهمرت الدموع من عينيك وانسابت هذه الكلمات من بين شفتيك. «إنه أحبننى وأسلم نفسه من أجلى، وخطاياى هى التى سمرته على ذلك الصليب، ولعنتى هى التى صبت جاماتها على رأسه، وآثامى هى التى كسرت ذلك القلب الملكى».

«ثم رأيت فى حلمى أنه حالما صعد المسيحى بالصليب انحل حمله من كتفيه، وسقط عن ظهره، واستمر الحمل يتدحرج حتى وصل إلى فم القبر حيث سقط نهائيا ولم أعد أراه.

«ومن ثم امتلأ قلب المسيحى فرحا وحبورا وصار ينشد قائلا :

بالحــزن وهبنى الراحــة وبالموت وهبنــى الحيــاة

«وبعد ذلك، وقف برهة صامتا لينظر ويتعجب حتى تدفقت الينابيع التى كانت فى رأسه ونزلت على خديه».[١]

أكان هذا هو اختيارك؟ إن لم يكن كذلك، فجد فى أثره، اطلب أن تنفتح عيناك لترى محبة الله معلنة فى صليب المسيح ومتدفقة فى حياتك. وعندئذ أنت أيضا تطفر فرحا وتمضى فى سبيلك مغنيا بأناشيد الفرح والتهليل.

إن لإعلان محبة الله خمس نتائج للنفس التى تقبلها:

---

[١] من «سياحة المسيحى».

(١) إنها تعدنا لإدراك الله:

كان تفكير يعقوب إلى ذلك الوقت محصورا فى أن يرى الله فى خيمة أبيه، كما يتوهم الكثيرون اليوم بأنهم لا يستطيعون أن يروا الله إلا فى الكنيسة، ظانين أن العبادة أو الصلاة لا تكون مقبولة فى أى مكان آخر بقدر ما تكون مقبولة فى الكنيسة. أما الآن، فقد تعلم بأن الله موجود فى كل مكان على حد سواء، فى القفر الموحش كما فى مذبح أبيه اسحق ولو كانت عيناه قد عجزتا عن أن تراه. والواقع أن التغيير لم يكن فى الله بل كان فى شخص يعقوب، فالنفس البشرية تنقل معها - أينما حلت - جوها الخاص الذى فيه ترى أو لا ترى وجود الله الحال فى كل مكان. إن كانت روحك مقدسة، استطاعت أن ترى الله حتى فى القفر. وإن كانت روحك متراخية ومتكاسلة ومهملة، عجزت عن أن ترى الله حتى فى أقدس مكان. كم من أشخاص كانوا يلازمون الرسول بولس ملازمة الظل للخيال ومع ذلك لم تعلن لهم رؤيا ملائكية واحدة ولا سمعوا كلمة سماوية واحدة. ومن الناحية الأخرى، لو أن الرسول قضى يوما واحدا فى عصرنا، لاستطاع أن يرى آثار وجود الله فى شوارعنا المزدحمة وأسواقنا الصاخبة. من ذلك نتعلم بأن التغيير ليس فى المكان أو فى درجة حضور الله، بل فى مقدار حدة البصيرة الروحية، طالما كانت كل الأمكنة مقدسة على حد سواء، والله موجود فى كل مكان.

عندما تتأثر قلوبنا وتتحرك عواطفنا على أثر حضور خدمة جليلة أو سماع حديث مؤثر، نميل عادة إلى أن نقول «ما هذا إلا بيت الله، وهذا باب السماء». ولكننا لا نشعر بالميل لإطلاق هذا الوصف عن المصنع أو المتجر الذى نقضى فيه أغلب أوقاتنا. والسبب فى ذلك هو انغماس أرواحنا فى الماديات. لأننا لو كنا ممتلئين من الله، لاستطعنا أن نجد كل مكان مقدسا وكل دقيقة مقدسة وكل حركة من حركاتنا مكرسة له، وأن نرى فى كل حادثة سلما ممتدا إلى السماء، وأن أرواحنا السعيدة تنتهز على الدوام كل فرصة لتركض نحو الطريق المنير وتعانق ربها الكريم.

وكذلك عندما نختبر لذة الخلاص من ضيقة شديدة، كما اختبر إبراهيم على جبل المريا، وتصرخ قلوبنا قائلة: «هذا أصبع الله». ولكننا لا نجد فى قلوبنا ميلا للنطق بهذا القول عن الحوادث التافهة فى حياتنا اليومية. السبب أيضا راجع إلينا. فإننا نحتاج إلى البصيرة

القوية التى لا يستطيع أن يمنحها سوى المحبة. فالتلميذ الذى أعلن إليه يسوع محبته الخاصة هو وحده الذى عرفه إذ كان على الشاطىء وقال: «هو الرب». ولو أننا امتلأنا من نفس الرغبة التى امتلأ بها هذا التلميذ للاغتراف من نبع محبة يسوع، لوجدنا أنفسنا أكثر استعدادا لندرك بأن الرب حاضر معنا كما كان الحال مع ذلك التلميذ.

إلى هذه اللحظة كان الرب معك فى كل البرارى والقفاز التى اجتزتها «وأنت لم تعلم». كان بجوارك فى وحدتك على فراش المرض، فى عملك المضنى، فى ذلك الطريق الشائك، بجانب ذلك الصليب المر، وسط تلك الجماعة التى لا تخاف الله، خلال تلك الساعات التى كنت تحسبها عالمية دنسه - ولكن عينك قد أمسكت عن أن تراه. إذن، فلا عجب إن كنت قد وجدت طريقك موحشا ومظلما. ولكن إن قبلت رسالة صليب المسيح: «الله يحبنى»، وإن سمحت بأن تسكب هذه الرسالة أريجها فى قلبك، فحينئذ لا تشعر بالوحشة ولا تحس بأنك من المنبوذين، وتستطيع أن تراه حيث لا يمكن لأية عين أخرى أن تدركه، وتحس بنور محبته يسطع بلمعانه الباهر فى قلبك، بينما يحس الآخرون بالبرودة والجمود يستحوذان على قلوبهم، وتدرك أن القفر هو أحد مساكن بيت أبيك السماوى. وتستطيع أن تتحقق من أن كل خطاب يصل إلى يدك، إنما هو رسالة شخصية من أبيك (السماوى) مكتوبة بخط يده، وترى ختم أبيك على كل طرد، وتقرأ إرادة أبيك فى كل حادثة وتستطيع أن تتحدث إليه من سفح الجبل أو وسط الجماعة على حد سواء، وتجد نفسك مضطرا - كلما أعلنت إليك رؤى جديدة عنه فى أظلم الأمكنة - أن تصرخ قائلا: «ما هذا إلا بيت الله، وهذا باب السماء».

(٢) إنها تملأ قلوبنا خوفا مقدسا:

«وخاف وقال ما أرهب هذا المكان»(ع١٧)، «المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج» أى «الخوف الذى له عذاب» (١يو٤:١٨) الذى يحمل فى طياته الانزعاج. ولكنها تنشىء فينا خوفا آخر، الذى هو بدء الحكمة، وأساس كل حياة نبيلة، خوفا يَرهب الله، ويفزع من إغضابه، ويخشى من ضياع أقل الفرص التى يجب أن تُنتهز لإتمام إرادته المقدسة. المحبة الصادقة تخاف ولا تخاف. إنها لا تخاف بسبب ما لها من دالة الثقة التى لا تخامر الشكوك. ولكنها

تخاف لئلا تخسر أقل عنصر من عناصر المحبة الرقيقة، أو تسبب أقل جزع لقلب المحبوب. إن الذين ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية يوبخوننا أحيانا بسبب استمرارنا فى التحدث عن محبة الله التى لا حد لها، المحيطة بنا من كل ناحية، مدعين بأننا نقود البشر إلى حياة الاستخفاف والاستباحة إذ نعلمهم بأنه لا توجد خطية لن تغفر فى الحال. ولكنهم يجهلون بأنه لا يوجد من يخالف الخطية أكثر ممن يدركون أنهم محبوبون جدا من الله. لأنهم واثقون أن كل مكان ممتلىء من حضرة المحبوب. وكل بقعة على الأرض ممتلئة من ضياء محبة الله كأنها سماء. وهكذا إذ ينتزع كل خوف من القلب الذى تسوده، فإنه يمتلىء خوفا آخر ينبذ كل اعتماد على النفس، ويمسك بالمسيح، ويتمم خلاصنا بخوف ورعدة.

(٣) وتلزمنا بأن نسلم أنفسنا لله:

«ونذر يعقوب نذرا قائلا إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه وأعطانى خبزا لآكل وثيابا لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبى يكون الرب لى إلها، وهذا الحجر الذى أقمته عمودا يكون بيت الله».[١] قد يبدو لأول وهلة من مجرد الاطلاع على هذه الكلمات أن يعقوب حاول - تحت تأثير طبيعته الشريرة - أن يساوم الله، ووعده بأن يتخذه له إلها تحت شروط معينة. ولكن لدى زيادة التأمل فيها تتضح براءته من هذه التهمة الشنيعة، ويتبين أنه لم يقصد إلا أن يقول بأنه طالما كان الرب له إلها فإن ذلك الحجر يكون بيت الله. ومهما تغيرت وجهة النظر نحو هذه الكلمات، فإن تلك اللحظة التى نطق فيها بها كانت وقت تكريس حياته لله. إذ رأى أن محبة الله تحصره كى يعيش فيما بعد، لا لنفسه، بل لمن أحبه (٢كو٥:١٤و١٥).

هل كان هذا هو اختبارك أيها القارىء العزيز؟ هذا هو الشرط الوحيد لصحة النفس وسلامتها وقوتها. أنت مِلك للمسيح، ولكن لعلك لا زلت عائشا كما لو كنت مِلكا لنفسك لم تُشتر بدمه الكريم. فهل تعجب إذن إن كنت لم تصادف سوى الفشل المرير فى حياتك؟ أنت تسلب يسوع من ملكه الذى اشتراه لنفسه، ولذا فلا تتوقع التمتع بملء خلاصه. سلم نفسك له

---

[١] ع٢٠-٢٢ (مكتبة المحبة).

الآن. وحالما ترغب فى إتمام ذلك، فإنه يستلم ما تريد أن تسلمه. أما إن كنت لا تستطيع أن تسلم نفسك، فاجث عند قدميه واطلب إليه أن يستلم كل ما فيك وكل ما لك. وحالما تخرج الكلمات من شفتيك، يستجيب صلواتك ويتخذك له ابنا إلى الأبد.

(٤) وتحفزنا على أن نكرس له كل ما نملك:

«وكل ما تعطينى فإنى أعشره لك».[١] لا سبيل إلى الشك فى أن هذا قد أصبح مبدأ يعقوب فى الحياة. ومن هذه الناحية، فهو يخجل أغلب المسيحيين، الذين إن أعطوا تجدهم لا يعطون عن عقيدة وعن مبدأ، ويعطون بنسبة ضئيلة من إيرادهم. ولو أن كل مؤمن سلك حسب هذا المبدأ لما شعرت الكنيسة بأية حاجة من الناحية المادية. خفض النسبة إن شئت ولكن لا شك إنك تخجل من نفسك إذ تسمع ذاك الذى تغنى قائلا:

لو أن كل العالم والطبيعة ملك لى
لأحتقر احتقارا إن قدمته لإلهى
لأن تلك المحبة العجيبة الإلهية
تتطلب كل حياتى، كل نفسى، كل ما أمتلك.

وسواء خفضت النسبة أو لم تخفض، فعلى كل مسيحى أن يعزم على تقديم عطاياه بانتظام لخدمة حق الله، وأن يفرز - كباكورة - جزءا معينا من كل أرباحه وإيراداته، على أن يعتبر بصراحة مكرسا لله ولا يصرف إلا كما يأمر هو.

والأجمل من هذا أن يعتبر المؤمن نفسه وإيراداته وقوته وكل كيانه ملكا لسيده، كما تكون كل ممتلكات العبد لسيده الذى اشتراه. ومع أن الكثيرين يقبلون هذا الكلام نظريا، إلا أنهم لا ينفذونه عمليا. ولذا فالأفضل أن تقدم نسبة معينة ثابتة من إيراداتك لكى تذكرك على الدوام إنك بكل ما تملك لست لنفسك بل ليسوع المسيح.

---

[١] ع٢٢ (مكتبة المحبة).

ولا شك فى أن إهمالنا فى هذه الناحية هو ما يسبب الجفاف والكآبة فى معظم الأحيان فى حياة المسيحيين. هذا هو السبب فى أن الكثيرين من الملائكة الصاعدين لا ينزلون أبدا، أو إنهم ينزلون بأيد فارغة. هذا هو السبب فى إننا نزرع كثيرا ونحصد قليلا، نأكل ولا نشبع، نشرب ولا نرتوى، ونضع أجورنا ومكاسبنا فى كيس مثقوب (حج١:٦) لقد سلبنا الله فى العشور والتقدمة. أما إذا عزمنا على أن نقدم له عشور كل شىء وأتينا بها إلى خزانته، فسنجد إنه فتح كوى السموات وسكب علينا بركات لا توسع.

(٥) وتملأنا فرحا وسرورا:

«ثم رفع يعقوب رجليه» (ص٢٩:١). أليس هذا دليلا على فرح قلبه الذى بعث فيه نشاطا جعله يتعجل فى مسيره؟ فإن رجليه اسرعتا فى المسير بسبب الفرح الذى كان يدفعه دفعا. لقد انتفى من قلبه كل حزن، لأنه سلم أثقاله للملائكة الصاعدين.

ولا شك فى أن هذا سيكون نصيبنا السعيد إن كنا فقط نؤمن بمحبة الله التى حفظها الله لنا فى قلبه، نحن أيضا سوف نتخلص من أثقالنا عند قدمى الصليب، ونتعلم حياة التسليم الكامل، تسليم كل همومنا ومخاوفنا - حالما تنشأ - لكاهننا الأعظم الذى يرثى لضعفاتنا «وحينئذ تمتلىء أفواهنا ضحكا وألسنتنا ترنما» (مز١٢٦:٢)، وتمتلىء قلوبنا بهجة وحبورا وتفتخر نفوسنا بالرب، ويسمع الودعاء فيفرحون (مز٣٤:٢).





التربية العائلية (تك ٢٩)

عندما تبعث الحياة من النبع الصافى السماوى
عندئذ تكتسى بثوب الجمال والكمال
وعندما تؤدى المحبه البشريه إلى ازدياد المحبه الإلهية الكاملة
عندئذ تكون قد وصلت إلى أوج المجد والجلال

بروكتر

بعد محبة الله تأتى محبة الرجل أو المرأة كأحد العوامل فى تربية الروح البشرية. وكل واحد منا يستطيع أن يفيض ينبوعا غزيرا من المحبة، فنحن ينبغى أن نحب وأن نُحَب، وكل شىء يتوقف تقريبا على الشخص الذى نختاره لكى نفرغ فيه كل محبتنا، ولكى نجد منه معونة وتشديدا للعزم عندما نجد تثبيطا للعزيمة ووهنا للقوة من العالم الشرير. وهذه المحبة إما أن تجدد طبيعتنا أو تفسد حياتنا، إما أن ترفعنا أو تخفضنا، وذلك يتوقف على الأشخاص الذين نختارهم والطريقة التى نعاملهم بها.

إن التقاء يعقوب براحيل عند أول بئر صادفها يذكرنا بأنه، ولو كان يوجد هنالك أهم من ارتباط قلب بقلب، إلا أنه فى نفس الوقت لا يوجد أخطر من هذه الناحية التى ينجرف فيها الشبان والشابات بلا روية ولا تفكير، فقد تكون نظرة أو ابتسامة أو لمسة أو حديث لحظة فى غرفة مزدحمة أو حفلة صاخبة - قد تكون إحدى هذه كافية فى نظر الشاب أو الشابة - لاختيار شريكة حياته التى تحدد مصير حياته إلى الأبد.

نحن بطبيعة الحال لا ننكر أن يعقوب قد يعثر على شريكة حياته فى الفتاة الجميلة التى يلتقى بها على البئر، ثم يتضح بأنها هى التى تلائم حياته من كل ناحية. قد يحدث هذا بفضل عناية الله الفائقة التى تحفظنا من أخطار لا نراها، وتغدق علينا بركات لا نستحقها. ورغم ذلك، فإنه من الغباوة والجنون أن نعطى قرارا نهائيا فى موضوع خطير كهذا لمجرد عاطفة وقتية أو بمجرد افتتاننا بحركة رشيقة أو وجه جميل. لا تكن عجولا فى هذا الأمر الخطير. ولا ترخ ربط المحبة بهذه السهولة، لئلا تعلق بأطرافها القاذورات والأشواك. بل منطق أحقاء عقلك، امتحن الأرواح هل هى من الله. لا تخط خطوة واحدة، خصوصا فى تلك الأمور التى لا يمكن نقضها أو الرجوع فيها دون رفع صلاة حارة لكى يكون كل الاختيار لله دون أن يكون لك دخل فيه على الإطلاق، ولكى يحفظك من كل الأخطاء، ولكى يعلن لك إرادته.

لا يكفى أن تفكر، ولا يكفى أن تصلى، إن كان قلبك قد تعلق فعلا بمحبة جديدة. لأنه فى هذا الوقت تكون النفس منشغلة بكليتها فى حبيبتها الجديدة، ويكون من العسير جدا تمييز صوت الله، لأن القلب يحوله إلى الاتجاه الذى يهواه. ولذلك فإنه من ألزم الواجبات أن تكون هذه الأمور موضوع تفكير طويل وصلوات حارة فى فجر الحياة، عندما تكون المحبة البريئة المنزهة هى المثل الأعلى الذى يحبها الشاب. وليتحدث الأمهات إلى بناتهن فى هذا الموضوع، والآباء إلى أبنائهم، كما تحدث اسحق مع يعقوب (ص٢٨: ١و٢). ليرفع الشاب قلبه إلى الله فى صلاة حارة كلما فكر فى هذا الموضوع، لكى يرشده - كما أرشد عبده إبراهيم - إلى المرأة التى اختارها له رفيقة. ولتكُف الفتيات المسيحيات عن التفكير فى جذب الرجال نحوهم. لتُسكّن الفتاة قلبها كفطيم. لتترك الأمر لله لكى يختار لها الشاب الذى يزيد جمالها ويحمى ضعفها ويبادلها محبتها.

ولا يمكن أن تكون هنالك تربية للشاب أو الشابة فى هذه الناحية كالتربية العائلية، كما يؤيد لنا ذلك غرائزنا الطبيعية، بل الكتاب المقدس نفسه. هذا ما اختبره يعقوب فراحيل وليئه كان لهما تأثير قوى جدا على صفات يعقوب وأخلاقه وحياته. فلتكن مواطن ضعفه عبرة لنا، ومواطن قوته بركة لنا.

(١) الشروط الأربعة لتكوين العائلة الحقيقية:

١ - يجب أن تكون هنالك محبة منزهة طاهرة. ومن المؤكد أن هذه كانت محبة متبادلة. وهذا واضح فى موضوع يعقوب «وأحب يعقوب راحيل» (ع١٨). وما لم يكن هذا النوع من المحبة هو الباعث للزواج فلا يمكن أن تكون السماء هى التى أتمته أو رضيت عنه أو قدسته. وكم من زيجات بعثت إليها بواعث غير شريفة مع الأسف الشديد. فالبعض يتزوج طمعا فى ثروة، والبعض طمعا فى مركز، والبعض يتزوج لبواعث أشر، وكل هؤلاء يخطئون مقاصد الله، ويخطئون ضد بعضهم البعض، بل إنهم يخطئون ضد أنفسهم. فيجب أن لا يقترن اثنان ما لم يشعر الواحد أن حياته لا يكملها إلا اقترانه بالآخر. هذه قاعدة يجب أن لا يحيد عنها البشر فى هذا الأمر الخطير. فإن توفرت المحبة فى قلب الواحد ولم تجد سبيلا لقلب الآخر، فلا يمكن أن تتوافر السعادة الحقيقية لانعدام تبادل المحبة. لأن العطاء دون الأخذ يسبب الإفلاس، والأخذ دون العطاء يقسى القلب حتى يجمد كالثلج. أما إذا لم تجد المحبة سبيلا إلى قلب الاثنين كان ذلك جريمة صارخة فى السماء نهارا وليلا، ولكن إن امتلأ قلباهما بالمحبة الصادقة المخلصة اعتبرا فى نظر ملائكة السماء شخصا واحدا إلى الأبد.

وغنى عن الإيضاح أن ضرورة توفر المحبة المنزهة الخالصة هى أساس عقيدة عدم تعدد الزواج، أى ارتباط شخصين اثنين فقط برابطة الزواج. إذن «فاحذروا لروحكم ولا يغدر أحد بامرأة شبابه» (مل٢:١٥).

لا يحق لك أن تثير تلك المحبة فى قلب غيرك ما لم تتحق من أنك مستعد لإيفاء كل مطالبها على قدر طاقتك. ولا يحق لك أن تفسح المكان فى قلبك لتلك المحبة مالم تتحقق من أن كل الشروط الأخرى متوفرة. ولا يحق لك أن تتزوج إن كانت تلك المحبة غير متوفرة. ولا يحق لك أيها الشاب أو أنت أيتها الشابة أن تعاملا شابة أو شابا بما لا ترضيان أن تعامَل به أختك أو أخوك، أو بما لا ترضيان أن تعاملا أنتما به.

٢ - يجب أن يكون الزواج «في الرب» فقط. هكذا كان زواج يعقوب. كان ممكنا أن يتخذ لنفسه زوجة من بنات حث كما فعل عيسو فانحدر إلى العبادة الوثنية وإلى النجاسات التى سببت لعنة الأرض. ولكنه استرشد بنصيحة والديه عبر الفيافى والقفار، حتى يجد لنفسه زوجة نشأت فى بيت لا زالت توجد فيه آثار عبادة إله إبراهيم وناحور وأبيهما تارح (تك٣١:٥٣).

يحذرنا الكتاب المقدس من أول صفحة لآخر صفحة من التزوج بالأجنبيات «بنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك. لأنه يرد ابنك من ورائى فيعبد آلهة أخرى» (تث٧:٣). «لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين، لأنه أية خلطة للبر والإثم، أية شركة للنور من الظلمة، وأى اتفاق للمسيح مع بليعال» (٢كو٦:١٤و١٥). «هى حرة تتزوج بمن تريد فى الرب فقط» (١كو٧:٣٩).

يجب أن لا نعجب من تكرار هذه الأوامر القوية المشددة. فإن الزواج بغير المؤمنين أو بغير المؤمنات مصدر مستمر للتعاسة والشقاء. وبحسب اختبارى فى مدة رعويتى الطويلة، أقرر إننى لم أعرف زيجة واحدة من هذا الصنف أنتجت سعادة كاملة. فالمؤمنون بهذا الارتباط لا يرفعون أقرانهم غير المؤمنين إلى المسيح، ولكنهم مع الأسف الشديد ينزلون هم أنفسهم إلى مستواهم السافل الدنىء، وبذلك يجلبون على أنفسهم الشقاء، ويلتحفون بالخزى والعار. «أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك إسرائيل ولم يكن فى الأمم الكثيرة ملك مثله، وكان محبوبا من إلهه فجعله الله ملكا على كل إسرائيل. وهو أيضا جعلته النساء الأجنبيات يخطىء» (نح١٣:٢٦). لأنه كيف يمكن أن يكون هنالك اتفاق فى الشئون السماوية السامية؟ فكل منهما يشعر أن هنالك أمرا لا يتفقان فيه. وهذا من أكبر المعاول الهادمة للوحدة الكاملة. فالشريك غير المسيحى يحتقر المسيحى لكسره مبدئه فى زواجه، والمسيحى سرعان ما يشعر بمرارة الفشل بسبب ما يختبره من أن نفوذه الجلى الذى كان له قبل الزواج قد تلاشى بعد ارتباطه مباشرة بتلك الرابطة التى لا رجعة فيها. فلا عجب إذن إن سئمت رفقة حياتها بسبب بنات حث. كم من فتاة مسيحية تزوجت غير مسيحى مؤملة ربحه للمسيح، ولكنها ندبت

سوء حظها بسبب سوء اختيارها، إذ أدركت أن نفوذها قد ذبل وتضاءل، وأيقنت مؤخرا أن الروح القدس لا يقدس مجهوداتنا إن كانت مؤسسة على كسر صريح لإحدى وصايا الكتاب المقدس الصريحة. إن هددك إنسان باتخاذ خطوات عنيفة أو خطرة إن رفضت الاقتران به، فدعه يفعل ما يشاء لأنه أجبن من أن ينفذ تهديده، فكل ما يريده هو أن يملى عليك إرادته. افعل الصلاح والحق أمام الله، ودعه بين يدى خالقك يتصرف فيه كما يشاء.

٣ - وتكوين العائلة الحقيقية يجب أن يكون مركزا على مشورة الوالدين الصالحة ونصيحة الأصدقاء الخالصة. وليس هذا أمرا محتما إذا ما تجرد اتفاق الطرفين من النزق والانزلاق فى الأهواء والشهوات الجامحة، ولكن حيثما أمكن أن يتوفر ازدادت سعادة الزوجين. هكذا كان الحال مع يعقوب: «فدعا إسحق يعقوب وباركه. فصرف إسحق يعقوب» (تك٢٨:١-٥). من الحكمة ومن الواجب أن يستشير البنون آباءهم - إن كان ذلك متوفرا - فى تلك الأمور الخطيرة. لأن محبة الآباء هى التى جعلتهم فى مركز الأوصياء على مستقبل بنيهم، وذلك حتى ولو كان اكتمال البنين فى السن والاختبار يؤهلهم بأن يختاروا لأنفسهم. على أنه إن أراد الآباء أن يكونوا موضع ثقة البنين فى شبابهم، فيجب أن يتعلموا كيف يكونون موضع ثقتهم فى حداثتهم، ويجب أن يستخدموا نفوذهم وسلطانهم بالمحبة والإقناع، لا بالقوة والإلزام، ويجب أن لا يكون حكمهم ملتويا بسبب أى دافع شخصى، بل ليكن خير ما يحقق السعادة لأبناء أعزاء.

٤ - ويجب أن يكون هنالك ضمان للحياة معا فى معيشة مناسبة. لم يجد يعقوب صعوبة فى هذه الناحية فى تلك الأرض المتسعة الغنية التى وجد نفسه فيها. أما اليوم، فما أعسر المعيشة فى هذه الحياة بمدنيتها الكاذبة. على أنه يجب أن يكون هنالك ضمان للتكافؤ والتعاون. يجب أن لا يستعجل الشاب فى اختيار شريكة حياته، لئلا يعرض حياته الزوجية لأخطار لا يمكن تفاديها مستقبلا. أيها الشاب لا تتزوج إلا بفتاة مثقفة مهذبة تعرف كيف تدبر بيتها بنفسها وبيدها ولا تترفع عن هذا. وأنت أيتها الشابة سلمى قلبك للشاب الذى تدفعه محبته لك بأن يجد ويكد فى الحياه للحصول على رزقكما. وحينئذ

يسترخص الواحد كل غال فى سبيل إسعاد الآخر، وقد يقوم ببعض أعمال البطولة، فقد دفعت محبة يعقوب لرفقة أن يخدم سبع سنوات كاملة.

متى توفرت هذه الشروط الأربعة كان هنالك كل الرجاء فى إيجاد الوحدة الكاملة التى هى صورة مصغرة لتلك الحادثة الخطيرة، التى تنتظرها كل الخليقة، عندما يأتى العريس فى نصف الليل وتزف إليه الكنيسة فى عشاء عرس الخروف.

(٢) قوة احتمال المحبة الفائقة:

«فخدم يعقوب براحيل سبع سنين. وكانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها» (ع٢٠). يسترعى أنظارنا فى هذه الآية جمالها وصدقها. إن المحبة تجعل الطريق الوعر سهل وأيام الانتظار المضنية قصيرة، وتجعلنا لا نكترث بأمور كثيرة لا يمكن احتمالها بدون تلك المحبة. فالأبطال الثلاثة شقوا محلة الفلسطينيين المسلحين ليستقوا بئر ماء من بيت لحم لقائدهم المحبوب غير عابئين بما يهدد حياتهم من أخطار من أجل المحبة التى كانوا يكنونها له (٢صم٢٣:١٦). والنسوة الخائفات تجاسرن فى صباح القيامة على شق المدينة المائجة لكى يحنطن جسد الرب، غير عابئات بما يهدد حياتهن من أخطار من أجل المحبة التى أحببنه بها. والشهداء ماتوا وسط الآلام المبرحة والابتسامة تعلو وجوههم، والتسبيح بين شفاههم، غير حاسبين حياتهم ثمينة، بل معتبرينه شرفا رفيعا أن يسكبوا آخر نقطة من دمائهم من أجل المحبة التى أحبوه بها، وكم من أمهات ربين أولادهن متحملات فى سبيل ذلك الأمرين، وقمن بأحقر الخدمات التى يستنكف الخدم القيام بها ولم يكترثن بالمتاعب الجمة التى يتحملنها من أجل المحبة التى يحببنهم بها. بل إن المسيح نفسه قد احتمل الصليب مستهينا بالخزى. وقبل أن يموت موت الأثمة، ويحتمل أمر الآلام، وسر بأن يضع حياته من أجل المحبة التى يكنها لنا.

هل تجده أمرا عسيرا أن تنكر ذاتك، وتقدم التضحية اللازمة لإتمام إرادته، وتعترف به؟ هنالك علاج واحد، وهو قصير ويسير. اطلب من الروح القدس أن يسكب محبة المسيح فى قلبك، وأن يعلمك بأن تحب ذاك الذى أحبك أولا. وعندما يفيض قلبك بتلك المحبة، ستجد

نفسك ملزما بأن تعيش، لا لنفسك، بل لمن أحبك، ومن ثم تجد أن الأثقال التى كنت ترزح تحتها قد أصبحت هينة، وأن الطريق الذى كنت متعبا فيه قد أصبح مريحا ومحبوبا، وأن السنين تبدو كيوم واحد. ذلك لأن تعب المحبة خفيف على الدوام.

(٣) كلمات ختامية:

١ - هل أنت غير متزوج؟ لا تندب سوء حظك ولا تتوهم أن حياتك ناقصة. ليس عيبا ولا عارا أن تبقى غير متزوج. ولكنك إن سلكت كاملا فى الطريق الذى رسمه لك أبوك السماوى فستكلل بأكليل الجمال والكمال. كف عن أن تقيس نفسك بالمقياس البشرى، اجتهد بأن تجد راحة فى الحياة التى يريدك الله أن تحياها. اسكب قارورة طيب محبتك على قدمى ذاك الذى أحبك. ربما يكون الله قد حررك من قيود الزيجة لكى تكرس محبتك لمن ليس لهم من يحبهم سواك. ولكن اذكر أنه فى استطاعة جميع من لم يتزوجوا مثلك أن يعيشوا حياة ضبط النفس والطهارة بقوة الروح القدس «الذى فينا».

٢ - هل فشلت فى زواجك؟ لقد فشل يعقوب فى زواجه بليئة المسكينة التى ذاقت مرارة الأحزان طويلا. فإن أباها ألزمها بالتزوج برجل لا يحبها، وكان يريد التخلص منها. لقد كان لها قلب المرأة، وعبثا حاولت أن تستمتع بمحبة زوجها. هنالك حوادث كثيرة أشد هولا من حادثة ليئة المليئة بالأحزان التى تتضح من الأسماء التى أطلقتها على بنيها، ومن المبررات التى قدمتها عندما أطلقت عليهم هذه الأسماء. ولكن اذكر أو اذكرى، أنها قد وجدت ما يعزيها فى محبة بنيها لها، إذ كانوا يلتفون حولها «كأم»، وهذا أعز شيء لدى المرأة. ولا شك فى أنك سوف تجد ما يعزيك أنت أيضا إن كانت لك العين البسطية التى ترى ما خصك الله به من تعزيات. وأفضل ما تستطيع أن تقوله «الرب قد نظر إلى مذلتى» (ع٣٢). وفى نفس الوقت، لا تتأخر عن تأدية واجبك واثقا بأنك قائم فى حضرته.

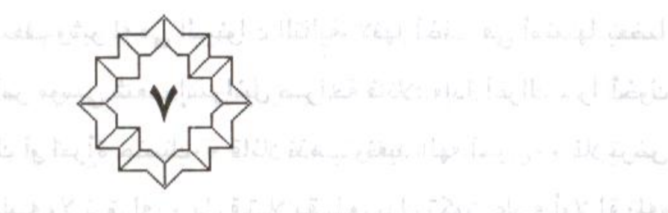
٣ - هل أنت موفق فى زواجك؟ إذن فاحذر لئلا تقيم من سعادتك الزوجية صنما، وتنسى إلهك أو تتوهم بأنه لم يعد لك حاجة للسهر واليقظة والحذر. ألم تلاحظ بأن زوجة يعقوب

المحبوبة كانت مصدر ضعف وشر له فى السنوات التالية، لأنها أخفت فى أمتعتها بعضا من أصنام أبيها؟ لهذا أمر موسى شعب إسرائيل صراحة قائلا: «إذا أغراك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك.. قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى.. فلا ترض منه ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له.. بل قتلا تقتله، يدك تكون عليه أولا لقتله» (تث١٣:٦-٩). ألم يعلمنا الكتاب أن لا نقبل أية نصيحة حتى من أعز الناس إلينا دون تمحيصها؟ «إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذا» (لو١٤:٢٦).

٤ - هل أنت متزوج بزوجة غير متدينة؟ لا تحاول التخلص منها بأى حال من الأحوال (١كو٧:١٣و١٤)، بل ابذل كل من فى استطاعتك لكى تكون واسطة فى ربح هذه النفس العزيزة للمسيح. تمم ذلك، لا بكثرة التحدث - لأنه إن كان للكلام وقت فللسكوت أيضا وقت - بل بإظهار جمال حياتك «حتى وإن كان البعض لا يطيعون الكلمة يربحون بسيرة النساء بدون كلمة» (١بط٣:١).

٥ - وفوق كل شيء لا تمنع محبتك عن الحبيب يسوع. ركز فيه كل محبة بشرية تستطيع أن تصل إلى أقصى درجات المحبة إن كنت تجعل محبتك له أول كل شيء وقبل كل شيء. إن كنت ترى بأن محبتك للآخرين هى عطية منه، إن كنت تتلذذ بمحبتك للآخرين فيه، إن كنت تسبحه وتشكره من أجل هذه العطية. وهكذا تعلمك المحبة البشرية بعض أسرار المحبة الإلهية، ومن أفكارك تستطيع أن تعرف أفكار الله «كل من يحب.. يعرف الله» (١يو٤:٧). «وأنتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة حتى تستطيعوا أن .. تعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة» (أف٣:١٨و١٩).





زهرة العمر (تك ٣٠)

لنتكلم بما نعتقد
ولنبق أمناء للحق
ولنحذر من كل ما هو باطل

لونجفلو

رأينا فى الفصل السابق كيف كون يعقوب لنفسه عائلة - ويا لها من عائلة، فقد كان وجود الأختين فيها مقوضا لأركان سلامها. لأنهما، بعد أن كانتا تنعمان فى بيت أبيهما كأختين قبل وصول يعقوب، لم تطيقا أن يعيشا معا كزوجتين لبعل واحد. بل دبت بينهما عوامل النفور والغيرة والحسد. وقد كان لكل منهما همها. فإن ليئة المسكينة كانت تعرف أن يعقوب لا يحبها قطعا، وأنها لم تكن الزوجة التى اختارها لنفسه. ومع أن الله قد عوضها بإعطائها بنين كثيرين - وهذا أعز ما تفخر به المرأة فى الشرق - إلا أن هذا أيضا كان مصدر تعب جديد لها لأن راحيل حسدتها، إذ كانت عقيمة ومقفرة فى ذلك البيت، يدل على بؤسها وشقائها اسما ابنيها.

وراحيل لم تكن تقل عنها بؤسا وشقاء. صحيح إنها كانت تنعم بمحبة زوجها، ولكنها لم تكن واثقة من دوام هذه المحبة. ثم إنها كانت تتعذب كلما رأت بنى أختها يكبرون كوارثين لزوجها. وكم من صلوات حارة رفعتها، وكم من مرة اضطربت، وكم من مرة احتدم غضبها.

إذن، فلا عجب إن كان الأولاد قد نشأوا أردياء وأشرارا. فرأوبين «فائر كالماء» (تك٤٩:٤)، أى غير ثابت، سريع الاضطراب والانفعال. وشمعون سريع الطاعة، ولكنه أيضا سريع القسوة الوحشية. ولاوى يرتضى أن يكون شريكا فى جريمته (تك٤٩:٥-٧). إذا ساء حال الأولاد، وإذا كان باب الطفولة الجميل لا يؤدى إلى هيكل الرجولة الجميل، فالأرجح جدا أن الذنب راجع إلى التربية العائلية. والأرجح جدا أن ذلك نتيجة ما يرونه فى البيت، أكثر من أن يكون نتيجة ما يلقن إليهم. ومهما كانت حياة يعقوب - وأخشى أن أقول إن قدوته لم تكن هى المثل الأعلى - فإن المؤثرات التى كانت تفعل فى الأولاد فى خيام الأمهات، بسبب الكلمات الرديئة والعواطف السيئة، كانت كافية لإتلاف أى طفل. فاحرص كل الحرص على تصرفاتك فى البيت. واذكر أن عيون الأطفال الصغار الأبرياء تتطلع إليك، وإنهم يقلدون تماما كل ما تقع عليه أبصارهم.

ولكن، لندع الآن جانبا حياة يعقوب العائلية، ولنتأمل فى حياته الاجتماعية ومعاملاته التجارية.

لقد خدم أربعة عشر عاما ليمهر زوجته، وعندما ولدت راحيل ابنها البكر يوسف انقضت تلك المدة. وحالما أصبحت الأم والطفل قادرين على تحمل مشاق السفر المضنى، أعلن يعقوب عزمه على العودة إلى كنعان. ولعل ذلك العزم قد أيدته رسالة أتته من رفقة تنبئه بأنه لم يعد هنالك ما يدعو لتغيبه.

انزعج لابان بهذا النبأ المفزع، إذ كان يقدّر خدمات يعقوب كل التقدير، ولم يشأ أن يطلقه دون أن يبذل أقصى ما فى وسعه من جهد لإبقاء خادم أمين كهذا. فقال له: «ليتنى أجد نعمة فى عينيك. قد تفاءلت فباركنى الرب بسببك» (ع٢٧). انتهز يعقوب هذه الفرصة فى الحال ليقيم ثروة مستقلة لعائلته المستمرة النمو، وسرعان ما قدم اقتراحه.

إن معظم الخراف فى الشرق بيضاء، والجداء سوداء. أما البلقاء (أى الملونة بالبياض والسواد معا) فهى نادرة. لذلك اقترح يعقوب أن تعزل كل شاة سوداء بين الخراف وبلقاء

ورقطاء بين المعزى، وأن كل ما ينتجه القطيع من هذا اللون فيما بعد يكون أجرة له. لم يكن فى هذا ضرر لو لم يكن قد نوى فى قلبه أن يستغل لابان استغلالا سيئا، الأمر الذى صار نقطة سوداء فى تاريخ حياته. وهنا نرى صورة غير مشرفة لشخصيتين انحرفتا عن جادة الصواب والمبدأ السليم، كل يحاول أن يفوق الآخر فى الحيلة والدهاء. فلابان اغتبط بالاقتراح واهتم، لا بعزل الصغار فقط، بل الكبيرة أيضا، وأبعدها بعيدا تحت رعاية أبنائه. ويعقوب ضحك فى سره لأنه كان قد رسم خطة يغنم بها مغنما عظيما. وسواء أكانت هذه الخطة قد رسمت من قبل ثم لم يفكر فيها إلا فى لحظتها، فمن المؤكد أن يعقوب كان فى هذه الخطة مخادعا ومحتالا. وللوقت استودع لابان قطعانه لرعايته، دون أن يخطر بباله لحظة واحدة أنه سوف يتلاعب بنواميس الطبيعة العادية. ويعقوب من الناحية الأخرى، لم يتردد فى استخدام كل حيلة لإنماء ثروته على حساب لابان، وسعى أن يكون نصيبه من نتاج الخراف والمعزى القوية ويترك الضعيفة والهزيلة للابان.

من المدهش جدا أن نجد بعض المفسرين السابقين يحاولون تبرير تصرف يعقوب فى هذه الناحية، كأنهم يحاولون بذلك أن يرشوا ماء الورد على المياه الآسنة النتنة. حقا إنه من العبث بالأخلاق أن نحاول إقامة البرهان على أنه لم يكن فى تصرف يعقوب شيء من الضرر:

إن الكتاب المقدس لا يتردد عن إظهار مساوىء أبطاله، لكى تزداد تعظيما لنعمة الله التى استطاعت أن تخلق من أشخاص ملوثين كأولئك أبطالا يشهدون لرحمة الله، إذا ما جمع يعقوب فى أخلاقه بين المتناقضات، ازداد العجب كيف أن نعمة الله تستطيع أن تتغلب على نفاقه وريائه وخداعه، وتصوغ منه جوهرة نفسية ولؤلؤة كريمة.

ولنقترب الآن من يعقوب ونجاحه وهو جالس بجوار قطعانه فى حرارة الشمس المحرقة، ولنتأمل بتدقيق فى معاذيره وحججه:

(١) قد تكون حجته الأولى ضرورة الدفاع عن نفسه ولعل لسان حاله كان يقول: «إن خالى ميال إلى خداعى وتجريدى من كل شيء، وإن لم أتصرف هكذا غلبنى. يجب أن ينازل

المرء قرينه فى نفس أرضه، وإن كان قد اختار أن يشهر علىّ سيف الغدر والخيانة، فإننى لا أرى ضررا من رد سيفه عليه.

لا ينفرد يعقوب بهذه الحجة، فلا زال العالم بأسره يرددها بالقول والعمل. ومما يؤسف له أن بعض الأشخاص الصالحين يجربون باستعمالها.

لا شك أنه من المؤلم جدا أن ترى شخصا آخر يستغلك استغلالا سيئا بالمكر والدهاء والخداع مما تبغضه نفسك. ولكن هل هذا يبرر التجاءك لهذه الأساليب؟ لعله قد سمح لحياتك أن تجوز هذا المحك لامتحانك ومعرفة ما إذا كنت تؤمن بأن الله هو الذى يدير العالم أم الشيطان.

إن كنت تؤمن بأن العالم هو عالم الشيطان، فلا غرابة إن كنت تستخدم حيل الشيطان. أما إن كنت تؤمن حقا بالله القادر على كل شىء، فلا شك فى أنك تثق بأن الباطل لابد أن يزهق تماما، وأن البر هو الذى ستكون له السيادة فى النهاية. ولا شك فى أنك تقابل الخيانة بالإيمان، والخداع بالأمانة، والظلم بالفضيلة.

قد يتسلح جليات بالأسلحة، ولكن ليس هذا مبررا ليتشبه به داود. اذكر كيف وعد الرب «قد يلجأ منافسك إلى الوسائل الدنيئة والحيل الشيطانية، ولكنك سوف تعيش لتراه قد سقط فى الحفرة التى حفرها لنفسك، وطُعن بنفس السيف الذى أعده لك. أما أنت، فإذا استمريت سالكا بالكمال، فلابد أن يكون النجاح حليفك، وتكون كالشمس فى الظهيرة، إذ تتخلص من السحب التى كانت تحجب أشعتها فى بدء النهار. «اتكل على الرب وافعل الخير اسكن الأرض وارع الأمانة، لا تغر لفعل الشر لأن عاملى الشر يُقطعون» (مز٣٧:٣و٨و٩). «لأن الرب يكون معتمدك ويصون رِجلك من أن تؤخذ» (أم٣:٢٦).

(٢) وقد تكون حجته الثانية: «لا تتدخل الصداقة أو المبادىء فى الأعمال اليومية العادية». ولعله ناجى نفسه بهذا الحديث: «حسن جدا أن نتحدث عن بيت إيل فى الأعياد السنوية والمواسم المقدسة الرسمية، ولكن ليس من المعقول أن تكون أقوالى وأفعالى فى أعمالى

اليومية العادية بنفس الروح التى كانت تسودنى يوم السلم الملائكى. فمشاغل الحياة لها نواميسها الخاصة التى تختلف كل الاختلاف عن نواميس بيت إيل».

أليس غريبا جدا أن نسمع أمثال هذا الحديث من بين شفاه من يدعون المسيحية؟ أليس غريبا أن يكون مستواهم الأخلاقى يوم الرب مختلفا اختلافا كليا عن مستواهم الأخلاقى فى الأيام الستة الباقية؟ أليس غريبا أن يسمحوا لأنفسهم فى مشاغلهم بأمور تناقض روح كلمة الله وحرفيتها، ولا يترددون لحظة واحدة فى إقصائها عن معاملاتهم العادية فى حياتهم اليومية، وهم يسكتون ضمائرهم بالقول المأثور «لا تتدخل المبادىء فى الأعمال اليومية العادية»؟ إننى لا أستطيع أن أفهم لماذا لا نحكم المبادىء فى البيع والشراء، أو لماذا لا تتحكم فى تصرفاتنا نفس المبادىء التى ندين بها تصرفات الآخرين.

حسب تصرفات البعض، يجب أن تُقرأ تلك القاعدة الذهبية هكذا: «كما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا، إلا فى مشاغل الحياة العادية». وتلك الوصية «لا تسرق» يجب تطبيقها فى كل مكان إلا فى المصانع وحوانيت التجارة. «كراهة الرب شفتا كذب» إلا عندما يريد التاجر التخلص من بضاعة تالفة. إن كان الأمر كذلك خرجت معظم حياة أغلبية البشر خارج دائرة وصايا الله. ولكن لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. فالمبادىء الأخلاقية فى الإنجيل تشبه قانون الجاذبية الذى لا يمكن أن يُعفَى منه أى شىء فى الوجود، فهو الذى يحدد طريق ذرة التراب كما يضبط كل العوالم.

(٣) وقد يقدم يعقوب حجته الثالثة بأن هذه هى عادة جميع البشر فى تصرفاتهم «هكذا يفعل سائر الرعاة، ولابد أن لابان يعرف ذلك، أو يجب أن يعرفه إن لم يكن قد عرفه من قبل. عندما تكون مع الكلدانيين يجب أن تتصرف مثل الكلدانيين. لست أشر من غيرى». ولكن العرف المألوف بين البشر لا يبرر الخطية، وهذا هو الفرق بين نواميس الله ونواميس البشر: إذا كسر كل البشر ناموسا ظل معطلا ولا يمكن تنفيذه، أما إذا كسر كل البشر ناموسا إلهيا فإنه لابد أن يقتص من الجميع. قد يشترك عدد وفير من البشر فى الخطية، ولكنهم لا يستطيعون أن يخبئوا بعضهم عن بعض أو ينجوا بعضهم بعضا

من قصاصها. وإذا اقترفت إثما مهما كان تافها، فإنه يعود إليك لكي يستقر فى قلبك وتحل عليك لعنته حتى ولو اشترك معك فيه الكثيرون.

(٤) ولعل حجته الرابعة كانت أن المكر والاحتيال لازمان للحصول على القوت، باعتبار أن الإنسان يجب أن يعيش. ولكن هذه الحجة واهية لا يمكن أن تثبت. فإن كلمة «يجب» لا أساس ولا أصل لها. أين كنا نحن اليوم لو أن كل الشهداء الذين استشهدوا فى الأيام الغابرة قدموا هذه الحجة، وقالوا إنهم «يجب» أن يعيشوا قبل أن يؤدوا الأمانة ويشهدوا للحق؟

يجب على كل امرىء أن يختار بين هذين الأمرين. كثيرون يعتبرون الحياة أهم من الحق. فإذا ما هبت العواصف تواروا واختفوا، لأن حياتهم فاترة جدا ولا يعرفون معنى الاستشهاد بأى حال من الأحوال. والبعض يعتقدون بأنه ليس من الضرورى أن يعيشوا، بل من الضرورى أن يكونوا أمناء للحق ويرددون ما قاله «بومباى» عندما طلب إليه أصدقاؤه أن يخاطر بحياته فى بحر متلاطم الأمواج «من الضرورى أن أذهب، وليس من الضرورى أن أعيش».

يقينا أن هذا هو منطق الإيمان. يهون على المرء خسارة كل الأشياء، ويهون عليه أن يموت، ولو كان محتفظا بالجواهر الكريمة التى ائتمنه عليها الله.

✣ ✣ ✣

كان يبدو ليعقوب أن خداعه أنتج نجاحا عظيما «فاتسع الرجل كثيرا جدا، وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير» (ع٤٣). ولكن هذا الذى يحسبه البشر نجاحا، والذى إن هو مظهر سطحى وقتى فى بعض الأحيان، لا يدل على استقامة الحياة أو اعوجاجها. إن الله لا يكافىء عبيده الأمناء بتوفير الثروة المادية. فكم من حياة كريمة فى عينى الله كانت هزيلة فى أعين البشر. وكم من حياة محتقرة فى أعين البشر كانت كريمة جدا فى نظر الملائكة. عندما تتوفر الثروة جدا لدى أى إنسان، فربما يكون قد سمح بها لدينونته

ولعنته لكى تعمى بصيرته عن خرابه. وفى كثير من الأحيان يسمح الرب بعدم تدفق الثروة على أولاده لكى تصل النفس إلى كمال صحتها الروحية.

إننى لا أوافق على تطبيق هذا الاصطلاح «الأمانة خطة قويمة» بصفة عامة، لا شك فى أن هذه القاعدة حقيقية فى ذاتها وفى نهايتها، ولو لم تكن كذلك دواما فى مظهرها وفى بداية الأمر، فإننا إن فكرنا فى أن نكون أمناء لمجرد التطلع إلى جزاء الأمانة، فإننا نركز حياتنا على مستوى منحط جدا، ونؤسسها على أساس واهٍ قد ينهار أمام أقل عاصفة. ولكننا يجب أن نكون أمناء، ليس لأن الأمانة خطة قويمة، بل لأن الأمانة مبدأ قويم، لأنه من الحق والنبل والشرف أن نكون أمناء، لأنه يرضى الله أن نكون أمناء. إذا فعلنا الحق صرنا أسعد حالا - بالقليل الذى لنا وبضميرنا الصالح - أكثر ممن قد نالوا الثروات الوفيرة ولكن تزعجهم تلك الذكريات عن الوسائل التى اتخذوها للحصول على ثروتهم، تلك الذكريات التى تفسد عليهم أبهج أفراحهم. «القليل الذى للصديق خير من ثروة أشرار كثيرين» (مز٣٧:١٦).

لا تجعل حدا فاصلا بين بيت الله وبيت العمل. فإن المصنع أو المتجر يمكن أن يكون بيت الله كقدس الأقداس الذى تتعبد فيه شعوب كثيرة. والنفس التقية تجد الله فى كل مكان، وتبقى مع الله فى كل مهنة دعيت إليها. إن كنت ترى بأنك لا تستطيع أن تخطى برفقة يسوع فى عملك اليومى، فاترك ذلك العمل بأى حال من الأحوال. أما إن كان العمل شريفا، وجدت الله بجانبك ولو كان مخفى عن عيون كل من عداك.

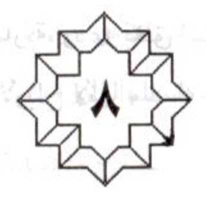
تمم كل واجباتك باسم الرب يسوع. لقد تعودت أن تصلى باسمه. فتعلم بأن تتمم كل عمل باسمه، وانطق باسمه لدى أداء أتفه الأمور تجدها تلمع بنور سماوى. انطق باسمه فى الأمور الغامضة المريبة تعلن لك طبيعتها الحقيقية. انطق باسمه فى الشدائد والصعوبات تنفتح أمامك الأبواب الحديدية من تلقاء ذاتها بشكل عجيب.

اتخذ الرب يسوع لك رفيقا. استشره قبل أن تخطو أية خطوة جديدة. قبل أن تقدم بضاعة لزبون جديد، قبل أن تشترى صفقة جديدة. لتكن كل حركاتك وسكناتك مكشوفة

أمام عينيه. سلم له كل صفقة تجارية، ودعه يغلق الباب أمامها أو يفتحه حسب مسرة مشيئته. احرص على أن تقاسمه الأرباح لأنها ملك له. ومتى كانت الحياة التجارية مكرسة هكذا فلن تمتد إليها يد الإفلاس.

وفوق كل شيء احرص على أن تكون عبدا للمسيح. في أيام العبودية السحيقة، كان السيد يضع عبده الأمين في مراكز ذات مسئوليات خطيرة، وكان يسلمه تجارته ليتجر بها نيابة عنه. لأن مواهب العبد العقلية وقواه البدنية وأرباحه كانت ملكا لسيده. كل ما تقع عليه عيناه، وكل ما تصل إليه يداه، كان ينظر إليه بهذا الاعتبار. وهل نحن إلا عبيد قد اشترانا ابن الله لنفسه؟ أليست متاجرنا أو سائر أعمالنا العالمية إلا فرع من وكالتنا له، وناحيه من نواحي التدريب لتدريبنا؟ أي شيء في الحياة نستطيع أن ندعي ملكيتنا له؟ أليس هو الذي يعطينا القوة والحكمة لنحصل على الثروة؟ أليست صورته وكتابته منقوشة على كل عملة؟ «إنكم لستم لأنفسكم لأنكم قد اشتُريتم بثمن، فمجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي الله» (١كو٦:١٩و٢٠).





تحريك العش (تث ٣١)

أيها الآب! كيف نجسر على السلوك فى طريق غير مطروق
نحن لا نستطيع أن نرى الآن إلا ما هو معلق فوق رؤوسنا
لقد خبأت عنا المستقبل فكن نورا لأبنائك
وأرشدنا أنت فى كل خطواتنا فى الليل أو فى النهار

ماريان فارنجهام

فى ذلك النشيد الخالد الذى اختتم به واضع الناموس حديثه لشعبه، يحملنا الخيال على أجنحة الريح لنقف بجانب عش أحد النسور فى قمم الجبال الشامخة.[١] هنا نجد مفتاحا لإدراك طرق معاملة الله للإنسان. عندما تكبر فراخ النسر ويكون فى استطاعتها أن تطير، تلازم عشها ولا تتجاسر أن تزج بنفسها فى الجو الذى لم تختبره بعد، ولا تثق فى أجنحتها. ولكنها يجب أن تتعلم الطيران. هنالك سعادة وأمجاد تنتظرها فى الفضاء الفسيح المترامى الأطراف لا تقاس بجانبها سعادة العش الخشن الذى نشأت فيه. لذلك يحرك النسر عشه فيدفعها منه.

ويا له من رعب لا مزيد عليه يملأ قلب فراخ النسور إذ ترى ذلك العش قد تهدم، وتتوهم أنها، وقد ألقى بها فى الجو، قد أصبح مصيرها الهلاك المحقق. ولكنها عندما ترى الهواء قد

---

[١] النشيد المشار إليه هو المبين فى (تث٣٢). وهنا يشير الكتاب إلى (ع١١و١٢) من هذا النشيد «كما يحرك النسر عشه وعلى فراخه يرهف ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه هكذا الرب وحده اقتاده.. إلخ».

حملها على أجنحته، وعندما تختبر عمليا لذة حرية الطيران وسعادته، تحس بأنها مدينة بالشكر الذى لا يعبر عنه نحو الأب الذى لم يحجم عن تلك العملية المزعجة، والذى يظل ملازما فراخه بجانبها مستعدا بأن يحملها لو خانتها قواها، ويرفعها إلى فوق. وهنالك فى كبد السماء يتركها ثانية ثم يتلقاها مرة أخرى، وهكذا فى كل مرة تزداد فراخ النسر ثقة بنفسها، كما تزداد قوة، وتتفتق موهبة الطيران التى كانت لا تحس بها وهى ملازمة عشها.

هذا مثل جميل يمثل الحياة البشرية. فإننا جميعا نميل إلى ملازمة العش القديم، الموطن القديم الذى ولدنا فيه، الأشخاص الأعزاء المخلصين الذين يستطيعون حمايتنا والدفاع عنا، المكان الذى أصبحنا فيه معروفين، الوجوه التى اعتدنا رؤيتها، الحقوق التى كسبناها ولسان حالنا يقول بإصرار «لنمكث هنا إلى الأبد. لا تتحدث إلينا عن ذلك العالم الخارجى العظيم، ولا عن الفرص التى تنتظرنا فيه، والذى - كما تدعى - ينمى قوى الجسد ومواهب العقل والقلب، تلك الأمور التى لا نعلم عنها شيئا. فنحن نفضل أن تبقى تلك المواهب دفينة عن أن تتكبد الآلام لإنمائها فى ذلك العالم الغريب عنا الملىء بالمتاعب، الذى لا نعلم عنه سوى مجرد الإشاعات التى تترامى إلينا. إننا قانعون بهذه الحياة التى نحياها، فلنبق هنا». على أن محبة الله العظمى قد ادخرت لنا أمورا أفضل. فهو يعلم أن هنالك ارتفاعات وانخفاضات لانعرفها حتى نخرج إليها. قد تشتد آلام وفزع تلك اللحظة التى فيها يحرك العش، والتى فيها نجد أنفسنا قد دفعنا إلى وسط غريب وأصبحت حياتنا كأنها معلقة فى الفضاء. ولكن تلك الآلام لا تقاس بالمجد الذى يعلن لنا فى الحال، لأن خفة ضيقتنا، التى إن هى إلا للحظة، تنشىء لنا أكثر فأكثر ثقل مجد الإيمان الذى يتعلق بغير المنظور، مجد الرجاء الذى يثق فى مراحم القدير، مجد المحبة التى تحلق دواما إلى الشمس «وأما منتظرو الرب فيجددون قوة، يرفعون أجنحة كالنسور» (إش٤٠: ٣١).

هذه التأملات تعطينا المفتاح للاختبار التالى فى حياة يعقوب المتعَبة، إن وراء كل خطوة من خطوات تعليمنا باعثا خاصا سواء رأيناه أو لم نره. وإن كان يعقوب لم يستطيع أن يرى ذلك الباعث فى وقته، إلا أننا إذا ما رجعنا بذاكراتنا إلى الماضى، استطعنا أن ندرك بسهولة الباعث على إنهاء مدة بقائه فى حاران فجأة. وهدم عشه فى تلك البلاد، وتطويحه فى

الصحراء كهارب، ومتابعته فى الصحراء للانتقام منه بشدة، كما حصل معه منذ سنوات طويلة عند مجيئه من بلاده.

كان يعقوب قد ابتدأ فعلا يقنع بالإقامة فى تلك البلاد الغريبة. كان - كأولسيس[١] وبحارته - قد أوشك أن ينسى وطنه، وخيام أبيه، والمواعيد التى كان هو الوارث لها. وكان قد أوشك كذلك أن يفقد روح الغربة، إذ أراد أن يستوطن فى تلك الكورة البعيدة. أما طرقه الوضعية وأساليبه الماكرة التى استخدمها لإنماء ثروته، فكانت تعمل على إضعاف روحه، وتقويض أركان طبيعته، والتسفل بها إلى أحط الدرجات. أما زوجتاه، فكانتا فى خطر أن تفسدا عقول أبنائه، إذ كانتا تسممتا بالعبادة الوثنية من بيت أبيهما. وماذا يكون الحال حينئذ مع ذلك النسل المقدس المعين لتقديم رسالة الله إلى العالم؟ لهذا كان لابد من تحريك، بل تحطيم عشه فى حاران. ودفعه ثانية إلى حياة الغربة لكى يصير غريبا ونزيلا مثل آبائه. وكانت هذه خطوة أخرى أقرب إلى تلك اللحظة التى تبدل فيها اسمه إلى «إسرائيل» وصار رئيسا مع الله.

قد يكون هذا هو مصيرك أيها القارى العزيز، وإن كان الأمر كذلك، فاقبل بوداعة أى تأديب يدفعك إليه. إن اليد التى ثقبت بالمسامير هى التى تحطم عش الماضى، وتومىء إليك مشيرة إلى الحقائق المباركة التى لم تختبرها، والتى تنتظرك.

(١) الدعوة للرحيل:

«وقال الرب ليعقوب ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك، فأكون معك» (تك٣١:٣). لا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق إن كان قد صار إليه صوت مسموع رن فى أذنيه اللحميتين أم لا، على أنه من المؤكد أنه كان هنالك صوت قوى فى داخله. يحدث بعض الأحيان فى أيام الصيف الشديدة الحرارة أننا نشعر بنسيم عليل يهب فجأة على وجوهنا، فنقول إن الرياح قد قامت. ولكننا لا نعلم من أين أتت ولا إلى أين تذهب. هكذا كثيرا ما

---

[١] إحدى شخصيات الإغريق، ارتحل عن وطنه عشرين عاما بعد حرب طرواده. وكانت رحلاته هذه موضوع أوديسة هومر.

يخلق فينا روح الله القدوس إيحاءات قوية مقدسة. كثيرا ما يحرك الرب فى النفس شعورا مقدسا بعدم الراحة، وتبرما مباركا، وجوعا لا يقبل أن يشبع بالخرنوب الذى تأكله الخنازير. ولا نستطيع أن نعرف ذواتنا دواما، ولكن يكون الرب هو الذى يأمرنا قائلا: «قوموا واذهبوا أو (وارتحلوا) لأنه ليست هذه هى الراحة (أو راحتكم)» (مى٢: ١٠).

فى العالم أنواع أصوات كثيرة، ولكل منها دلالته الخاصة. وقد يصعب فى بعض الأحيان تمييز صوت الرب. ولكن كلما ازددنا رسوخا فى طبيعة فراخه، ازددنا إدراكا لصوت الراعى الصالح. وعندما تكون غير واثق من صوته فانتظر حتى تثق. فإن من اختصاص الراعى أن يعلن شخصه وإرادته لأضعف خرافه وأشدها حيرة وارتباكا. وكل ما هو مطلوب منا، هو أن نكون راغبين ومستعدين لإتمام إرادته حالما تعلن لنا. وعندما تحوم حولك الشكوك، فانتظر بإيمان حتى تقفل كل الأبواب ولا يبقى أمامك إلا طريق واحد مفتوح، فتستطيع أن تقول: «يهدينى إلى سبل البر من أجل اسمه». (مز٢٣: ٣)

إن صوت الله للقلب تؤيده عادة ملابسات الظروف الخارجية. «ونظر يعقوب وجه لابان وإذا هو ليس معه كأمس وأول من أمس» (ص٣١: ٢). لقد ظلت العلاقة بينهما متوترة مدة طويلة. إذ أنه غير طريقة إعطائه أجرته عشر مرات فى ست سنوات. وهوذا الآن قد بدت علامات الانفجار. من الحكمة دواما أن نترقب ظهور علامات واضحة لإرادة الله، هنا ظهرت إحداها.

من المؤلم جدا أن نرى تغييرا فى تصرفات الأصدقاء نحونا، خصوصا إن كنا نعجز عن إصلاح هذا التغيير. وأخشى ما نخشاه هو ما قد يحدثه هذا التغيير من عواقب وخيمة. ومع ذلك فإن يد الله فى هذا التغيير بلا ريب. هو الطريق الذى يسلكه فى الأعماق. أصغ إلى التأكيد الإلهى «وقال الرب ليعقوب ارجع... فأكون معك» (ص٣١: ٣). إن الراعى الصالح نفسه قد يخرجك من الحظيرة الدافئة التى تكاد تكون جرداء لكى يهديك إلى المراعى الخضراء ويوردك إلى المياة الحية. والمعلم الأعظم نفسه يفرغك من آنية لأخرى لئلا تستقر فى حالة الركود. والكرام نفسه يعرضك للعملية المؤلمة – عملية نقل الشتل من مكان إلى مكان – لأنها من أضمن الوسائل لزيادة النمو. تشجع إذن، فما هذه إلا جزء من الخطة التى يجعلك بها

رئيسا وأميرا. إنك فى أشد الحاجة إليها فإنه لن توجد هنالك طريقة أخرى لنزع طبيعتك اليعقوبية الضعيفة واستبدالها بطبيعة أسمى.

(٢) معاكسة الظروف:

عندما تحاول النفس إطاعة صوت الله للخروج إلى حياة الغربة، يمتلىء البيت عادة من الجيران الذين يحاولون تثبيط العزيمة وإقناعها بأن هذه خطوة متهورة. ولقد صدق كاتب سفر سياحة المسيحى إذ قال «وحالما ركض المسيحى هزأ به البعض، وهدده البعض، وصرخ خلفه الآخرون لإرجاعه». هكذا كان الحال مع يعقوب فإنه، إذ بدأ يستعد للعودة إلى وطنه، وجد عوامل كثيرة تتعلق به لتعطله عن الرحيل.

لقد كان يخشى من أن تعطله زوجتاه عن العودة لبلاده. ولو أنهما فعلتا ذلك لكان أمرا طبيعيا، لأنه هل كان يعقل أن ترضخا بسرعة لطلبه نحو نزعهما من أرضهما وعشيرتهما؟ وكان ممكنا أن يكون هذا الخوف سببا فى تعطيل يعقوب. ولذلك فكر على الأقل فى ضرورة تحصين نفسه ببعض الحجج لإتمام غرضه. وفى هذه الحجج نلمح ناحية من طبيعته المستكينة الماكرة. فإنها خليط عجيب من الأكاذيب والرياء والحق. وكان ممكنا أن ينجو بنفسه من كل هذه لو أنه اتكل على الله ليرفع من طريق طاعته كل العثرات. لأن الله سبقه فأعد قلبيهما، ولذا رضختا لفكرته وقالتا «ألنا أيضا نصيب وميراث فى بيت أبينا. ألم نحسب منه أجنبيتين. فالآن كل ما قال لك الله افعل، (ع١٤-١٦) فلنعلم بأننا إذ نتقدم إلى الأمام فى بساطة الطاعة، نجد أنه لم تعد هنالك حاجة لتدبيراتنا أو سياستنا، ونرى الله سائرا أمامنا يجعل المعوج مستقيما والخشن ناعما.

وفى مساعى لابان لابقاء يعقوب، نرى صورة واضحة للجهود الجبارة التى يبذلها العالم لتعطيلنا عندما نكون على وشك مغادرته نهائيا. فهو يتابعنا بكل جنوده، ويسعى وراءنا مسيرة سبعة أيام وأكثر (ع٢٣)، ويسألنا لماذا لا نرتضى البقاء معه (ع٢٧)، ويعترف برغبته فى جعل ديانتنا مستساغة بمزجها بمسراته ورقصه ودفه (ع٢٧)، ويلجأ إلى عواطفنا ويطلب منا أن لا نكون شديدى القسوة على الآخرين (ع٢٨)، ويهددنا (ع٢٩)، ويهزأ بنا إذا ما رآنا

قد رجعنا إلى صوابنا فجأة بعد عشرته السنوات الطويلة (ع٣٠)· ويعيّرنا متهما إيانا بأننا، بعد عشرتنا مع الله، قد ارتكبنا خطية ماكرة «لماذا سرقت آلهتى» (ع٣٠)·

أيها الأحباء: كم هو محزن عندما نعطى - نحن الذين ندعى المسيحية - فرصة لأعدائنا للاستهزاء بنا بسبب الأصنام الخفية التى يعلمون أننا نحملها معنا؟ فى بعض الأحيان، قد لا نكون نحن ملومين بقدر «راحيلاتنا» زوجاتنا أو أولادنا أو أصدقائنا· لكن يجب أن لا نهدأ حتى نتأكد - على قدر ما تصل إليه معلوماتنا - من أن محلتنا قد تطهرت من الحرام·

وأخيرا بعد أن يفشل لابان، الذى يطاردنا محاولا تعطيلنا، يقتنع من الغنيمة بالإياب، ويرضى نفسه بهذا الأنين قائلا: «ماذا أصنع اليوم» إن التهديد طالما انتهى بالبكاء والعويل، يكون المؤمن ثابتا لا يتزعزع·

وهكذا أقيمت «رجمة الشهادة» أخيرا (ع٤٥-٥٢)، ليتك تحطم قيود حياة العالم التى قد انتظرت فيها طويلا وتتحرر منها· اقطع علاقتك بها نهائيا· إنما لا تفعل ذلك سرا كما فعل يعقوب· وعلى أى حال، فإن لم يكن ممكنا إلا أن تفعل كذلك، فخير لك أن تفعله سرا من أن لا تفعله قط· ولكن اعلم بأن ذلك يدل على روح الاستكانة والجبن والخوف، ويجر عليك مقاومة أشد· ثم إنه لا يتفق مع شخص اتخذ الله له نصيرا وحصنا حصينا· إن الطريق المستقيم الواضح الصريح - الذى يرفع الراية عالية - هو أسهل الطرق وأفضلها وآمنها·

قال أحد الضباط البحريين لرئيسه قبل مغادرة السفينة للمرفأ الذى تجددت فيه حياته: «أرجوك أن تكتب على رقعة بأحرف واضحة هاتين الكلمتين: «أنا مسيحى»· وعندما سئل عن غرضه من ذلك أجاب: «حالما أصعد إلى السفينة سأعلق هذه الرقعة على باب غرفة نومى حتى يستطيع أن يراها كل إنسان، فتوفر على متاعب جمة، لأن كل واحد سيعرف وجهة نظرى ويتأكد من أنى سأكون أمينا لها»· هذه هى إقامة «رجمة الشهادة»·

فلنقم هذه «الرجمة»، واسمح لى بأن أعينك على إقامتها· اجمع حجارة ورتبها بشكل ذلك الصليب الذى به صلب العالم لبولس الرسول وصلب هو للعالم· كل هنالك من تلك

الوليمة التى تتحدث عن الحياة عن طريق الموت. ادع أصدقاءك ليشهدوا عملك الخطير. وفوق كل شىء ادع الله ليشهد على صدق تعهدك بأن لا تجعل العالم يسودك مرة أخرى، أو الجسد أو الشيطان أن يعبرا إليك أو تعبر أنت إليهما. هذه هى المصفاة الحقيقية أى «مراقبة» الرب (ع٤٨-٥٤).

(٣) العناية الإلهية:

لا شك فى أن يعقوب امتلأت نفسه غبطة حينما قال لزوجتيه: «إله أبى كان معى» (ع٥٥)، إن كان الله معنا ولنا فمن علينا؟ طوبى للذى يحيط به الرب والذى يحارب عنه الرب. فإنه يعظم انتصاره (أو «يصير أعظم من منتصر» حسب الترجمة الإنجليزية). هذا ما اختبره يعقوب، وفى نهاية اصطدامه بلابان استطاع أن يكرر تأكيده بأن إله أبيه كان معه (ع٤٢).

قام يعقوب وحمل نساءه وأولاده وعبيده وإماءه، وساق كل مواشيه (ع١٧و١٨)، وعبر نهر الفرات (ع٢١)، وشق طريقه فى الصحراء بأقصى ما يستطيع من سرعة. ولكن ملائكة الله كانت فى رفقته، كما لاقته فيما بعد (ص٣٢:١). ظل هروبه لا يُعرف عنه شىء ثلاثة أيام (ع٢٢)، ثم قام لابان وجدّ فى أثره بجماله السريعة حتى أدركه، وكان لا يزال يتخطر وسط جبال جلعاد الغنية بغاباتها ومياهها. وكانت ساعة خطيرَة، والخطر محتم. ولكن فى تلك اللحظة، تدخل الله «وأتى الله إلى لابان الأرامى فى حلم الليل» (ع٢٤)، وقد ملك هذا الحلم على كل مشاعر لابان، فصده عن تنفيذ قصده وعن إيقاع أذى به.

كان يعقوب خاطئا وابنا عاقا لا يستحق شيئا من رحمة الله، ولكن الله لم يتركه ولم ينبذه. إنه لا يحبنا لأننا صالحون كما اعتدنا أن نخبر الأطفال الصغار بغير وجه حق، ولكنه يحبنا لكى يجعلنا صالحين. كما إنه لا يخصنا بمحبته لأننا نستحقها، كذلك هو لا يحجب عنا محبته بسبب خطايانا. إنه يبغض خطايانا، ولكنه يحب أشخاصنا محبة لا تستطيع أن تقوى عليها الخطية. لذلك فقد بسط حمايته حول يعقوب الخاطىء هذا، وهذا كان جزءا من خطته المتدفقة محبة له، التى كانت تقتاده إلى قصد أسمى لم يكن يحلم به بتاتا.

كان يعقوب يدرك أنه راع مثالى (ع٣٨)، ولكنه لم يكن يدرك كثيرا كيف كان محاطا بمحبة وعناية ذلك الراعى الأعظم حافظ إسرائيل الذى لا ينعس ولا ينام. وهذه العناية نفسها يمكن أن تكون نصيبنا.

أيها الراعى الصالح الذى ترعى قطيعك فى الشدة والرخاء، فى كل ظروف الحياة المتنوعة، برقة لا تكل ومحبة لا تمل، الذى تسعى وراء الخروف الضال حتى تجده وتعيده حاملا إياه على منكبيك، نحن أيضا قد ضللنا كخراف ضالة. فتش عن عبيدك مهما كانت التضحية (من جانبنا) وبأى ثمن، نجنا من شراك العالم، وارعنا بعنايتك حتى يتحقق مثلك الأعلى فى حياتنا.





صراع نصف الليل (تك ٣٢)

شـمـس البـر أشـرقت بأشـعـتـهـا
والشـفـاء والقـوة فى أجنحـتـهـا
فـذبلت طبـيـعـتى القـديمة بنجـاسـتـهـا
منك تـسـتـمـد نفـسى حـيـاتـهـا وقـوتها
كل مـعـونة مـذخـرة فى الـسـمـاء تحت إمـرتها
لأن اسـمك مـحـبـة وطبـيـعـتك مـحـبـة

✥ ✥ ✥

والآن إذ نالـت نفـسى كل كـفـايتـهـا
فإنهـا تخمع على حق فـخذها حتى تنتهى رحلتها
ليس فـيـهـا إلا الضـعف وخـور عـزيمتـهـا
عليك فـقط اتكلت نفـسى لطلب مـعـونتـهـا
إذ بدونك لن تستطيع أن تقوم بواحـدة من حركاتها
لأن اسـمك مـحـبـة وطبـيـعـتك مـحـبـة

وسلى

من بعد انتهاء حديث يعقوب مع لابان، حل يعقوب خيامه فى صباح اليوم التالى، واتجه إلى مرتفعات جلعاد وارتحل بتؤدة نحو الجنوب، غير عالم أن ذلك اليوم سيكون المعركة الفاصلة فى حياته. «لا تعلم ماذا يلده يوم» (أم٢٧:١)، لأنه لا يلد الشر فقط، بل يلد بركة وخيراً. قد يكون هذا هو اليوم المعين منذ الأزل لتتحول فيه من مكر وخداع العمر الطويل إلى حياة الخضوع التام لإرادة الله، والسلطان العظيم على البشر.

في اعتقادى أن هذا المنظر العجيب لا يتفق مع ذلك التغيير الذى نطلق عليه لفظة «تجديد»، فهذا بلا شك كان القصد الإلهى من الرؤيا الملائكية فى بيت إيل. على أنه يمكن مقارنته بتلك البركة التى ينالها المؤمن أحيانا بعد اختبار عدة سنوات فى الحياة المسيحية. ليس هنالك أى مانع فى الواقع من أن يختبر المؤمن كل إمكانيات الحياة المسيحية وكل أعماقها منذ اللحظة التى يحظى فيها بتجديد الحياة. ولكن الأمر الواقع يدل على أنه كثيرا ما تتوسط مدة التيه فى البرية بين إتمام عملية الفصح وعبور الأردن للدخول إلى أرض الموعد وإلى الراحة والنصرة. وكثيرون من أولاد الله الذين لا يشكون فى الغفران ولا فى قبولهم أمام الله، كثيرا ما مرت عليهم فترات انكسار وتقلب. وكثيرا ما اختبروا مرارة الهزيمة والفشل، وكثيرا ما حاولوا أن يفعلوا الخير ولم يستطيعوا. وكثيرا ما أحسوا بوخزات الضمير القاسية، ومرارة فى النفس. بعد ذلك يأتى وقت يُدفعون فيه غالبا إلى اختبار جديد. ذلك أنهم يجوزون جوا يتاح فيه لبذرة الحياة التى كانت مخبوءة داخلهم بأن تعطى ثمرا متكاثرا. فينالون فيض النعمة التى ترفعهم فوق كل مستوى وصلوا إليه فى حياتهم الماضية، وتغدق عليهم من البركات ما لا يحصى ولا يعد. إن كنت لم تختبر ذلك عمليا من قبل، فقد لا تستطيع أن تدرك معنى ذلك التغيير الذى يحصل فيضع حدا فاصلا بين القديم والجديد. كان هذا الاختبار من نصيب يعقوب بعد تلك الليلة الخالدة.

في هذا الإصحاح يدون لنا الوحى ثلاث حوادث تمثل صباح وعصر وليل ذلك اليوم التاريخى العظيم.

(١) فى الصباح يخبرنا أن ملائكة الله لاقته. ويا له من جمال يقطر من ثنايا هذه الكلمات. كيف تم ذلك؟ هل أتته الملائكة اثنان اثنان أو ثلاثة ثلاثة؟ أم أنه حالما أدار وجهه فى منعطف أحد الجبال رأى موكبا عظيما من الملائكة، كل أربعة منهم سائرون جنبا إلى جنب، متمنطقين بمناطق ذهبية فوق ثيابهم البهية، بينما كانت الموسيقى السماوية تعزف بأنغامها الشجية؟ ألم يذكره هذا المنظر ببيت إيل التى يرجع عهده بها إلى خمس وعشرين سنة؟ ألم يحفزه للاستعداد للخطر الداهم الذى كان مقبلا إليه؟

لا شك فى أن هذه الجوقات الملائكية تمر بنا دواما، ولكن أعيننا ممسكة عن أن تراها. وسواء رأيناها أم لم نرها، فيجب أن نعتبرها مستعدة دواما لنجدتنا، خصوصا عندما تقترب منا الضيقات الشديدة «ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم» (مز٣٤:٧). هذه هى محنايم.[١] هنا يلتقى جيشان. والجبل مكتظ بالخيل والمركبات النارية من حولنا. والذين معنا أكثر من كل الذين علينا.

(٢) وإذ بدأ النهار يميل وحل العصر، بدأ قلب يعقوب تنحل أوصاله بسبب الأخبار المروعة التى وصلته. فإنه كان قد أرسل رسلا - كما هى عادة العرب إلى الآن - لأبناء عيسو بعودته ولمعرفة نيته نحوه، فعادوا إليه بأقصى سرعة يخبرونه أن عيسو آت لملاقاته بأربع مئة رجل. فارتاع يعقوب جدا. وله كل الحق فى ذلك. إذ كان كل من له وكل ما له عرضة للخطر - زوجاته وبنوه، قطعانه ومواشيه، كل ما اقتناه بكده وتعبه مدة ست سنوات. كأن رجمة الشهادة حائلة دون رجوعه، وكما يقول المثل كانت قنطرة المرور التى عبرها قد التهمتها النيران. وكان اللصوص منبثين حوله متحفزين لينقضوا على الغنيمة إن بدت منه أية علامة للخوف أو الجبن. ولكن استمراره فى الرحيل كان معناه الخطر المحقق. فلم يكن أمامه على الأقل أن يصلى. فاعتزم الصلاة. ولعله لم يُصلّ مثل هذه الصلاة الحارة منذ زمن طويل.

كانت طبيعته النبيلة قد بدأت تتوارى منذ بضع سنوات بسبب نمو بعض الأعشاب فى قلبه، وكان صوت الضمير قد بدأ يضعف بسبب هموم هذه الحياة، غرور الغِنَى، وشهوات سائر الأشياء (مر٤:١٩)، والضمير المثقل الشرير لا يستطيع أن يصلى. والصلاة لا يمكن أن تسكن القلب الذى يعشش فيه الخداع والمكر واللؤم، ولكنها تخرج من الشفتين دون أن تمس القلب. أما الآن - تحت تأثير صدمة ذلك الخطر الداهم - فقد بدأ الروح القديم ينتعش فيه من جديد، وبدأ شعر النذير ينمو ثانية (انظر سفر العدد ص٦).

أليس هذا هو مفتاح معاملات الله لنا أجمعين؟ إنه يدخلنا الضيقات الشديدة، يحصرنا

---

[١] مملكتان أو جيشان. «وقال يعقوب إذ رآهم هذا جيش الله. فدعا اسم ذلك المكان محنايم».

فى ركن منعزل، يسمح لجدران وسقف وأرضية الغرفة التى نحن فيها بأن تتقارب معا كأنها تريد أن تسحقنا. فى مثل هذه اللحظة، لا يبقى أمامنا سوى ملجأ وحيد، هو شخص الله. يجب أن نهرع إلى الله لننجو. إننا نجد أنفسنا مدفوعين لنجثو أمامه، ولا نجد فى شفاهنا كلاما سوى أن نصرخ؛ ومع أن هذا الصراخ لا يحتوى عادة إلا على اعتراف بعدم استحقاقنا، ولكنه فيه الكفاية، فإن حبل الصمت قد انقطع وأزيلت العثرات من الطريق، والابن الضال غادر الكورة البعيدة، وصار فى طريقه إلى وطنه، ألم يكن هذا هو ما اختبرته الفينيقية؟ فإن شقاءها المقيم جعلها تطلب المسيح، فوجدته فى عزلة تمنعه عن كل شخص إلا من كان فى مرارة، ورفضه الظاهرى لطلبها، جعلها تصل إلى أقصى قمم الإيمان، وتنطق بكلمات غاية فى الجرأة لم تكن تجسر على النطق بها لو لم تكن واقعة تحت ضغط حزنها البالغ. إن محبة الله عظيمة جدا حتى إنها تسمح بأن تسبب لنا بعض الآلام لكى تدفعنا إلى الموقف الذى كنا نجزع منه من قبل، ولكننا بعد ذلك لا نرتد عنه.

فى تلك الصلاة نجد علامات كثيرة تدل على سلامة نفس يعقوب وقوته. فإنها من بعض النواحى يليق بأن تكون أنموذجا لنفوسنا عندما تصهر فى بوتقة الآلام.

فهو قد بدأ الصلاة بترديد وعد الله مرتين «أنت قد قلت» (ع٩و١٢)، إذن فقد كان ممسكا بالله. إن الله بمواعيده يضع نفسه فى متناولنا، وعندما نستطيع أن نقول له: «أنت قد قلت» فإنه لا يمكن أن يرد لنا طلبا، بل لابد من أن يفعل كما قال. وإن كان هيرودس قد رأى نفسه ملتزما بالقَسَم الذى خرج من فمه،[١] فكم بالأحرى يلتزم الله بمواعيده، إذن ففى الصلاة تأكد من أنك تستند على وعد، لأن ذلك يشجعك على اقتحام أبواب السماء واغتصاب ملكوت السموات.

وبعد ذلك تقدم إلى الاعتراف «صغير أنا عن جميع ألطافك إلخ» (ع١٠).[٢] لقد مر

[١] راجع مر ٦:١٧–٢٨ (مكتبة المحبة).

[٢] «أنا دون أن أستحق جميع ما صنعت إلى عبدك من المراحم» حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الإنجليزية.

بمخيلته خداعه لأبيه الشيخ، وتصرفه نحو عيسو، حيله الكثيرة التى ارتكبها مع لابان مدة السنوات الطويلة. لقد انكشف أمامه خداع قلبه ونجاسة حياته فى لحظة بكل وضوح. والضمير استيقظ من سباته الطويل الذى استغرق فيه فساد طبيعته. ووقف محاجا ومحتجا ومشتكيا، كما وقف ناثان أمام داود، أو يوحنا المعمدان أمام هيرودس، أو بولس أمام فيلكس الوالى الرومانى الذى ارتعب عندما تحدث إليه بولس عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون. وإذ مثل أمامه الماضى بكل ما فيه من نقائض وشرور، ألم يكن هنالك ما يبرر اعترافه هذا «صغير أنا» (أنا دون أن أستحق)؟ عندما تُعصر النفس تحت ثقل الحزن الشديد، ينبعث منها مثل هذا الصراخ. ولعل أقرب الأمثلة التى تناسبنا فى ظروف كهذه، مثل العشار الذى لم يستطع أن يرفع نظره إلى فوق، بل أطرق إلى الأرض، وصرخ قائلا «اللهم ارحمنى أنا الخاطىء».

ومن ثم تقدم لطلب النجاة «نجنى من يد أخى من يد عيسو» (ع١١). لقد كان محقا بطبيعة الحال أن يصلى هكذا. ولكننى لست أظن أنها كانت صلاة من كل القلب، لأنه لم يكد يتمها حتى عاد إلى الخطة التى كان منشغلا بتدبيرها قبل أن يلجأ إلى الصلاة. لقد كان من عادة يعقوب دواما أن تكون الفكرة الأولى لديه تدبير الخطط. فقد دبر الخطة لنيل بركة اسحق، ودبر خطة لإنماء ثروته، وهنا نراه يدبر خطة لاستعطاف عيسو. لا أستطيع بطبيعة الحال أن أقول كلمة واحدة ضد تدبير الخطط إن اتضح لنا تماما أن هذه هى طريقة لنجاتنا. ولكن أخشى ما أخشاه هو أن يحل تدبير الخطط محل انتظار الله بكل اتكال وبساطة حتى تصعد السحابة وتسير أمامنا وترشدنا إلى الطريق وسط الصحارى والقفار. كلنا نميل أن نصلى كما صلى يعقوب، ثم نحاول بعد ذلك تدبير الخطط لنجاتنا. لا شك فى أن الموضع الصحيح هو أن نصمت وننتظر الله – بعد الصلاة – لكى يتمم خطته هو ويرشدنا إلى الطريق التى لم نكن نحلم بها من قبل.

كان يعقوب كثير الاعتداد بالذات كما هو الحال معنا نحن أيضا. هذا يجب أن يُنترع منا بالتمام. ويجب أن تُصلب حياة الأنانية قبل أن يحل محلها المسيح – يجب أن تُحَلّ

أوصال الطبيعة القديمة تماما حتى تحيا الطبيعة الجديدة، طبيعة الاتكال الكامل على الله. كان هذا هو موضوع الصراع العجيب الذى ترك تأثيرا عميقا فى حياة يعقوب.

(٣) ثم حل منتصف الليل. كان يعقوب قد أجاز كل ما كان له، وبنيه، حتى راحيل المحبوبة، مخاضة يبوق (ع٢٢)، ويبدو أنه تحت ضغط تلك الأزمة الشديدة لم يحتمل جلبة المحلة وضوضاءها، ولا ثرثرة الأطفال ومناجاتهم، بل ولا المرأة الوحيدة التى أحبها من كل قلبه. «أخذهم وأجازهم الوادى وأجاز ما كان له، فبقى يعقوب وحده» (ع٢٣و٢٤). عندما تدخل النفس جثسيمانى، تنسحب نحو رمية حجر عن أعز أصدقائها. كان حوله هدوء القفر الموحش، وبجانبه خرير مياه النهر المنحدرة بسرعة من فوق الصخور، وفوقه زرقة السماء مرصعة بالنجوم. وإذ جلس وحيدا فى ذلك المكان، تأمل فى الماضى وتطلع إلى المستقبل، وأحس بوضاعة الأغراض التى باع لأجلها حياته، ورأى فشله المحزن فى الحياة. وفجأة أدرك أن مبارزا عجيبا حل بجواره ودفعه للنزول معه فى حرب – نصفها جسدى ونصفها روحى – دامت حتى بزوغ الفجر.

أكانت هذه الحروب جسدية؟ ليس هنالك أى مبرر لإنكار هذه الحقيقة. فنحن نعلم أن ابن الله سبق أن أعلن تجسده بالظهور أحيانا بشكل جسدى، لأن لذاته كانت منذ القديم مع بنى آدم (أم٨:٣١). ولقد كان من الميسور أن يصارع جسديا مع يعقوب كما كان ميسورا أن يمد يديه ليلمسهما توما بعد القيامة. يقينا إن الحرب كانت جسدية بكل معنى الكلمة، لأن يعقوب عند استئناف رحلته خمع على حق فخذه، ولا زال شعبه إلى اليوم يذكرون ماديا هذه الواقعة المادية، إذ يمتنعون عن أكل ذلك الجزء من اللحم (عرق النساء) الذى يشبه الجزء الذى انخلع فى فخذ يعقوب. فالإنسان لا يصير أعرج بسبب حرب وهمية أو معنوية. وعلى أى حال، فإن الصراع الخارجى لم يكن إلا رمزا متواضعا للصراع الروحى الذى كان محتدما فى نفس يعقوب، ولا زال هذا الصراع عمليا داخل أولاد الله الغيورين إلى اليوم، كما كان الحال فى العالم عند بدايته.

لاحظ بأن الصراع لم يبدأ من ناحية يعقوب بل من ناحية الملاك «وصارعه إنسان» (ع٢٤)، كثيرا ما رُدّدت هذه العبارة للدلالة على جهاد يعقوب فى الصلاة، لكنها بالحرى

تدل على مقدار رغبة الله فى أن يخلينا من كل ما يعطل الحياة الصادقة فينا، وعلى مقدار مقاومتنا نحن له بكل قوتنا. لم يكن يعقوب هو الذى أراد أن ينال شيئا من الله، بل كان الله نفسه. الملاك يهوه «هو الذى كانت له خصومة مع يعقوب ابنه الذى امتلأ قلبه من المكر والخداع، ولذلك اعتزم على أن ينتزع منه روح الاعتداد بالذات إلى الأبد. ويعطى مجالا لبزوغ ونمو إسرائيل الذى اختبأ طويلا فى يعقوب.

هناك حادثة فى حياة موسى توضح هذه الحقيقة. فإنه عاش أربعين سنة معتزلا فى الصحراء. وأخيرا ارتحل إلى مصر وفى رفقته امرأته وبنوه. ويظهر أنه - انقيادا لرغبة زوجته - قد أهمل إجراء أحد الطقوس الجوهرية لبنيه. وهو الختان الذى كان يلتزم به جميع أبناء إبراهيم بمقتضى أمر الله. وحدث فى الطريق أن الرب أوقف مسيره، بل هدده بالموت إلى أن يتمم ذلك الطقس الذى كان قد تجاهله، وبعد ذلك أطلقه. هكذا كان الحال مع يعقوب. فقد كان فيه الكثير من الصفات التى يجب أخلاؤه منها، كان فيه كثير من روح الاعتداد بالذات، وكثير من الزغل الذى يجب إحراقه بالنار. لذلك اقتربت منه محبة الله فى تلك الليلة الخطيرة لإخلائه من تلك النقائص بأى ثمن.

ألم يلتق بك ذلك «الإنسان» الذى صارع مع يعقوب؟ ألم تشعر بوخزات الضمير القاسية فى داخلك؟ ألم تشعر بأن هنالك أشياء معينة أعززتها وأحببتها منذ زمن طويل يجب أن تخلى نفسك منها ولو كلفتك الدماء؟ ألم تشعر أنك كان يجب أن تسلم نفسك بكليتها لله، ولكنك وجدت صراعا عنيفا فى داخلك، وكان يبدو لك بأنه يستحيل عليك تسليم حياتك؟ ألم تشعر بمرارة إن وجدت رغباتك الخاصة تقاوم عمل الروح القدس فى داخلك؟ ألم تشعر كأن قوة عظيمة تصارعك لخيرك؟ يقينا أن هذه الإحساسات القوية والمصارعات السماوية والبواعث العجيبة الخفية ليست من إنسان ولا من مشيئة لحم بل من الله. إن الله هو الذى يعمل فى داخلك، ويصارع معك. مجدا لاسمه من أجل صبره وطول أناته وغيرته ومحبته.

فى بداية الأمر ثبت يعقوب «ورأى (الملاك) إنه لا يقدر عليه» (ع٢٥)، كانت القوة التى دحرجت الحجر عن فم البئر منذ سنوات طويلة من أجل غنم راحيل لا زالت فى عنفوانها، ولم يشعر بأى ميل للخضوع. وهكذا أيضا نحن جميعا نقاوم محبة الله. فإننا نتتبع

أساليبنا وخططنا، وننفذ إرادتنا، ونتزايد فى اعتدادنا بذواتنا. «لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك وتمشى حيث تشاء» (يو٢١:١٨)، كل واحد منا فيه تلك القوة العجيبة التى تستطيع أن تقاوم الله. وهو يعلم، مع الأسف الشديد، إنه يمكنه التغلب علينا دون اتخاذ إجراء عنيف معنا يضطرنا أخيرا للتسليم.

بعد ذلك مس الملاك حُقّ فخذه. مهما كان ذلك الشىء الذى يساعد النفس على مقاومة الله، فإن الله يمسه عندما يقصد أن يبارك تلك النفس. قد يكون هو الافتخار بالثروة، أو بالنفوذ والجاه، أو بالمحبة. ومهما كان، فإن الله لا يمكن أن يتركه دون أن يمسه. قد يكون أمرا طبيعيا كعضلة حق الفخذ. ولكنه إن كان سيحرم الإنسان من بركة روحية، فإن الله لابد أن يمسه. قد يكون أمرا تافها كعضلة حق الفخذ، ولكنه إن كان يعطى يعقوب قوة فى مقاومته لأية بركة، فإن الله لابد أن يمسه.

وتحت تلك اللمسة، لابد أن يتقلص وينكمش فيصبح أعرجا إلى نهاية الحياة. ولكن اعلم بأن العضلة لا يمكن أن تتقلص إلا تحت لمسة اليد الملائكية، تحت لمسة المحبة الأبدية. وهذا هو سبب حبوط مشاريعك، وذبول أولادك قبل الأوان، واكتناف حياتك بالفشل. لقد مس الله عضل قوتك، فجف. إيه يا من لا تزالون تقاومون الله، أسرعوا وسلموا، لئلا يصيبكم أشر.

ثم انتقل يعقوب من المقاومة إلى التمسك. فإنه إذ بزغ الفجر، أراد الملاك أن ينطلق، ولكنه لم يستطع لأن يعقوب أمسك به بكل قوته. يدل طلب الملاك بأن يطلقه على أن يعقوب الأعرج قد أمسك به لطلب المعونة. لقد ترك موقف الدفاع والمقاومة، وتعلق بالملاك، كما يطوّق الطفل المرتعب عنق أبيه بذراعه بشدة. تلك ساعة مجيدة فى حياة المرء عندما يمسك بكلتا ذراعيه بيسوع المقام من بين الأموات ويتعلق به، ولا يدعه ينطلق. هذا هو مظهر البركة، وهذا هو دليل القوة. هذا هو الشرط الذى به يهمس المسيح باسمه الجديد الذى لا يعرفه أحد إلا من يناله. ألم تختبر؟ هل أخليت نفسك من روح الاعتداد بالذات، وامتلأت من روح الثقة بالله والتعلق به؟ هل شعرت بالقوة على الافتخار بعجزك عن الوقوف وحدك، مما دعاك إلى معرفة يسوع معرفة حقيقية؟ هل امتلأت من روح التسليم الكامل؟ إن لم تكن قد وصلت

إلى هذه الاختبارات بعد، فاطلب من الله أن يكشف لك عن العضلة التى تمنع بركته لك، واطلب منه أن يمسها، حتى لا تعود تقاومه بعد، وعندئذ تكتشف البركة المثلثة التى هى لك:

(١) تغيير الاسم :

كانت الأسماء تعطَى فى قديم الأيام لا اعتباطا ولا لمجرد اختيار أفضلها معنى وأعذبها نطقا، بل لتدل على الأخلاق والصفات. فكان الاسم يحمل صفات المرء. والآن، إذ وصل يعقوب إلى موقف للبركة، الموقف ذى الوجهين: الأول التخلى كلية عن روح الاعتداد بالذات، والثانى الثقة الكاملة التى تتعلق بالمسيح. فللوقت قال له الملاك: «ما اسمك» فقال «يعقوب»، إننى بالطبيعة مخادع ومخاتل وماكر. أيها القارىء العزيز، لا تحجم عن الإفصاح بصفتك الحقيقية: «إننى خاطىء». فقال له الملاك «لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل» (إسرائيل معناها الأمير المجاهد مع الله). وكان تغيير الاسم يدل على تغيير الصفات. فإن يعقوب ابتُلع فى النور. وأُلبِسَ اسم وطبيعة الأمير.

هنالك طريق واحد لكى تكون أميرا، هو الطريق الشائك - طريق تسليم النفس، طريق الإيمان. فلماذا لا تسلم نفسك الآن لله تسليما كاملا وتعطيه كل كيانك؟ ليست هى إلا عبادة عقلية. نتيجتها ثبات فى الإيمان. وقوة للخدمة، وسمو فى الصفات. وهذه كافية لكى تجعلك تخمع على حق فخذك، دلالة على أن قوتك الذاتية - التى كنت تضع عليها كل اعتمادك فيما مضى - قد فارقتك إلى الأبد.

(٢) القوة :

لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت، أو بتعبير آخر «لأنك كأمير كانت لك قوة مع الله، أما مع الناس فستجاهد وتقتدر». إننا نتوق إلى القوة - القوة للتغلب على أنفسنا، القوة للخدمة، القوة لغلبة أجناد الشر الروحية. ولكن قبل أن ننال القوة مع المخلوق يجب أن نحصل عليها من الخالق. والمرء الذى يريد الحصول على القوة مع البشر، يجب أن تكون له أولا مع الله، ونحن لا يمكن أن نكون لنا قوة مع الله إلا بعد

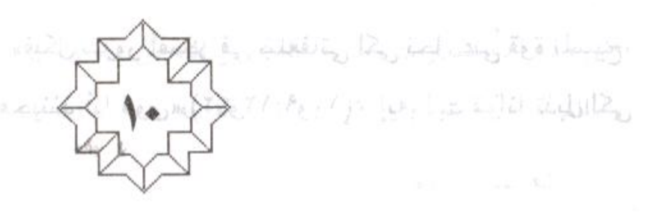
أن تفارقنا قوتنا ونعرج. «فبكل سرور أفتخر فى ضعفاتى لكى تحل علىّ قوة المسيح، لأنى حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوى» (٢كو١٢:٩و١٠). إيه، ليت قوانا تذبل لكى نمسك بقوة الله.

(٣) الرؤيا المباركة السعيدة «نظرت الله وجها لوجه»:

إن لحظات الرؤيا تأتينا عند شق الفجر باكرا، ولكن لابد أن تسبقها ظلمة مرعبة، سهر الليل الطويل. الصراع المضنى، خلع حق الفخذ. على أنها عندما توافينا نجدها بهيجة ومجيدة جدا فيتحول النظر عن تلك الآلام والأحزان إلى ضياء النور الساطع وثقل المجد الأبدى. صحيح أن الثمن غال، ولكن الله أثمن من كل شىء. والآلام لا تقاس بالمجد الذى يعلن.

هذه هى الحياة - صراع طويل ضد محبة الله التى تشتاق بأن تجعلنا أمراء وملوكا وسفراء. وعندما تتقادم بنا الأيام، نبدأ بأن نتعلق بما تعلقنا به يوم جاهدنا. وعندما يبزغ نور فجر السماء، نرى بصيصا من نور المحبة الملائكية، ونسمعه يهمس فى آذاننا باسمه الجديد. وعندما يباركنا، نستيقظ فنجد أنفسنا أحياء نرى الله وجها لوجه - وهذه هى السماء بعينها.





١٠

فشل (تك٣٣و٣٤)

عـجـيب أننى أحـيـانا أنسى
ذلك الدرس الذى تلقيته من قبل
ولا ألبث أن أفعله مرة أخرى بدموع غزيرة
حتى أنساه مرة أخرى
ولكن الله لا يرفضنى بل يتأنى على
ثم يمسح كل دمعة من عينى
يا لغنى لطفه وإمهاله
وحكمته وطول أناته

ف.ر. هافرجال

كان صراع نصف الليل - الذى تأملنا فيه فى الفصل السابق - بدء عصر جديد فى حياة يعقوب، خطا فيه إلى مستوى جديد فى اختباراته - مستوى إسرائيل الأمير. ولكن لنذكر أن وصولنا إلى مثل هذا المستوى شيء واحتفاظنا به شيء آخر. فالبعض عندما يحصلون على نعمة ما يحتفظون بها وينالون فيض البركة إلى نهاية الحياة. والبعض يتراجعون إلى الوراء بعد أن يقفون برهة فى تلك النعمة حيث يرون ضياء الله الكامل، لأنهم إذا ما رأوا أحد المثل العليا الجديدة، لا يمكن أن يرتضوا بالحياة التى اعتادوا أن يحيوها. وحتى إذا لم يدركوا هذا المثل الأعلى فى الحال ويثبتوا فيه، فإنهم لابد واصلون إليه فيما بعد. على أن يعقوب، للأسف، سرعان ما هوى عن ذلك المستوى الذى رفعه إليه الملاك.

يبين هذا الانحدار إصرار كاتب سفر التكوين على إبقاء الاسم «يعقوب». فقد كنا نتوقع أن يستبدل هذا الاسم بالاسم الجديد «إسرائيل» كما استبدل ابرآم بإبراهيم. ولكن ذلك لم يحصل. فكيف كان ممكنا أن يطلق عليه اسم إسرائيل إن كان قد رجع سريعا إلى حياة «يعقوب»، ورجع من حياة التعلق بالله إلى حياة التملق والمكر وتدبير الخطط التى كان يحياها منذ زمن طويل؟ سيأتى الوقت الذى يصبح فيه «إسرائيل» لقبه المألوف، ولكن ذلك الوقت لم يكن قد حل بعد. إن أبانا السماوى يترفق بنا جدا، وإذا لم نحفظ تعاليمه سريعا، قدمها إلينا مرارا وتكرار، بصور مختلفة، إلى أن تتم أخيرا مقاصده فى أخلاقنا وحياتنا.

ولنتأمل الآن فى مظاهر فشله الثلاثة التى يوضحها لنا هذان الإصحاحان.

(١) الفشل الأول فى كيفية مقابلة عيسو:

عند شروق شمس الصباح «رفع يعقوب عينيه ونظر وإذا عيسو مقبل ومعه أربع مئة رجل» (ص٣٣:١). هكذا تسير الحياة فإنها مليئة بالمتناقضات. الآن نرى الملاك، ومن ثم نلتقى بعيسو. الآن نقضى أربعين يوما على جبل سينا مع الله، ومن ثم نرى العجل الذهبى. الآن نشهد جبل التجلى، ومن ثم مرارة الصليب. الآن نتمتع بجزيرة بطمس برؤياها المجيدة.

ورغم ذلك، فيجب أن نشكر الله لأجل هذا التنوع فى الحياة. لأنه لولا ذلك لامتلأت الحياة من عيسو وأقفرت من يعقوب، وغصت بجثسيمانى وعدمت النظرات البهيجة إلى السماء، واكتظت بطمس بوحشتها وخلت من رؤياها المجيدة. ومما يزيدنا غبطة أن عدد الأيام السعيدة فى حياتنا يفوق الأيام المظلمة، وأفراحنا أكثر من أتراحنا، ومراحم الرب أكثر من مصائب العالم.

وكثيرا ما لاحظنا أن البركة العظمى - كتلك التى أتت ليعقوب عند مخاضة يبوق - عندما تحل، يكون ذلك لكى تعدنا لتجربة شديدة. فالله يعدنا لها ببركاته العظمى. هو يأخذنا إلى «جبل المصاعب» ويدخلنا «البيت الجميل»، حيث ننام فى «غرفة السلام» التى تواجه الشمس عند إشراقها. ليس هذا لكى نستقر هنالك، بل لكى نستريح ونتهيأ لمقابلة أبولون فى

الوادى، ونعبر ظل الموت آمنين.[١] فلا تعجب، بل ولا تيأس إن كانت البركات غير العادية تعقبها تجربة محرقة. والأحرى أن تعجب إن سارت الأمور بغير هذا الوضع. ولكن عندما تحل تلك التجربة المحرقة، احرص على أن تتصرف بغير ما تصرف يعقوب، واقترب من جميع ينابيع القوة والتعزية التى اختزنتها أيام القوة والنور والسلام.

هناك طريقان لمقابلة الضيقات والمتاعب، أولهما طريق الجسد، والثانى طريق الروح؛ فالجسد يتطلع إليها بفزع ورعب، ويستعد لها بيدين مرتعشتين، ويصلى بخوف وهلع، ثم يتذلل أمامها كما فعل يعقوب إذ «سجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه» (ع٣). أما طريق الإيمان فعلى النقيض من هذه تماما، فإنه يتعلق بالله، ويستمع له إذ يقول «ها أنا معك وأحفظك» (ص٢٨:١٥)، ويؤمن بأنه أمين لكل مواعيده، ويتأمل فى الماضى حيث كانت أيدى لابان مربوطة ومقيدة، ويثق بأن الله لا يزال مستعدا أن يفعل كما فعل القديم، ويتقدم لمقابلة المتاعب، لا بتذلل ومداهنة، بل باستقامة وانتصاب، واثقا من أن يد الله تعمل وسط هذه المصاعب والضيقات، وأنها مهما كانت بشعة ومخيفة من بعيد، إلا أن الأسد قد قُيد، ومخالب الذئب قد حُطمت، والسهام قد أزيلت أسنتها المسممة.

إننى كلما تذكرت كيف رفض أتباع اللورد إلجن Elgin أن يزحفوا على الأرض فى حضرة إمبراطور الصين، امتلأت إعجابا. فإنهم إذ علموا أن كل الأجانب يجب أن يمثلوا فى حضرة الإمبراطور بهذه الهيئة، أجابوا بكل شجاعة أنهم لن يسمحوا بإعطاء إمبراطور الصين ذلك الإكرام الذى لم يطلبه ملك الملوك نفسه. وأخيرا سمح لهم بالدخول منتصبين. هذه هى الهيئة الطبيعية اللائقة بالرجل الذى يحترم نفسه، ولكنها بلا شك هى الهيئة الأكثر لياقة بالإيمان.

لعل من بين قارئى هذه السطور من يخشى التقاءه غدا بعيسو، بدائن أو مطالب، أو مشكلة عويصة، أو صعوبة ما. وقد تكون أنت اليوم مرتبكا، تدبر الخطط، تعصر فكرك وتقدح

---

[١] من كتاب «سياحة المسيحى».

ذهنك كما فعل يعقوب فى ترتيب زوجتيه وأولاده وخدمه، مع أنك سوف تتقدم إليها غدا فى مذلة ومسكنة.

هاك خطة حكيمة رشيدة. لا ترفع عينيك لتنظر إلى عيسو، فالذين يترقبون المتاعب لا يلبثون طويلا حتى تواجههم. بل ارفع متاعبك إلى فوق، إلى ذاك الذى منه يأتى إلينا العون. وعندئذ تستطيع أن تواجه متاعبك بروح ثابتة لا تتزعزع. لأن الذين رأوا وجه الله لا يخافون وجه الإنسان الذى يموت. والذين نالوا قوة من الله تكون لهم القوة والغلبة على كل الشرور التى تهددهم.

وفوق ذلك كله، فإن الصلاة عندما تسبق التجربة، نجد التجربة أضعف مما كنا نتوقع. فالنسوة عندما وصلن القبر، وجدن الحجر الذى كن يخشينه قد تدحرج. وبطرس عندما وصل الباب الخارجى الذى كان يبدو أن الخروج منه مستحيل «انفتح له من ذاته». هكذا كان يعقوب يخشى ذلك اللقاء بعيسو. ولكنه عندما اجتاز إليه، وركض عيسو للقائه وعانقه ووقع على عنقه وقبله وبكيا (ع٤). تعود أحدهم أن يقول أنه عندما كان يمتطى جمله ويسير وحيدا، كان يقضى وقتا طويلا فى الصلاة، وإذا ما التقى بألد أعدائه، كان يظفر بهم ويجردهم من سلاحهم. يقينا أن الصلاة هى المفتاح لكل مشاكل الحياة، والبلسان الشافى لكل أحزانها.

ومما يجمل بنا جدا ملاحظته، أن الله كان فى هذا الموقف أجدى ليعقوب من مخاوفه ومن إيمانه. فبينما كان يتوقع أشر العواقب، كان خله الوفى السماوى يعد له النجاة والخلاص، كما فعل الرب بعد ذلك بسنوات طويلة، إذ مد يده وخلص بطرس الخائف من الأمواج المتلاطمة، الذى بعد أن كان قد ثبت عينيه فى ربه رفعها عنه، وشخص إلى مخاوف العاصفة.

(٢) أما الفشل الثانى فكان فى الكذب الذى لجأ إليه يعقوب ليتخلص من رفقة عيسو:

عندما عرض عليه عيسو أن يضع تحت تصرفه رجاله المسلحين لحمايته، امتلأ قلبه رعبا وفزعا فى الحال، لأنه خشيهم أكثر من خشية أعراب البادية. وحاول التخلص من هذا الاقتراح بعدة اعتذارات أهمها، أن أولاده رخصة والمواشى مرضعة ولا تستطيع السير

بسرعة. وأخيرا – لزيادة إقناعه بتركه والتخلى عنه – وعده أن يلحقه فى سعير التى كان يستوطن عيسو فيها.

والآن، إنى لا أعتقد برهة واحدة أن يعقوب قصد فعلا الذهاب إلى سعير، لأنه حالما رأى عيسو ورجاله يعودون، ارتحل هو إلى جهة أخرى ناحية سكوت (ص٣٣: ١٦، ١٧). لم يكن هذا الكذب والخداع لائقا بأى حال من الأحوال بمن رأى ملائكة الله وجها لوجه.

يا لها من سقطة شنيعة. فإن ذلك الفجر اللامع، سرعان ما تلبدت سماؤه بالغيوم القاتمة. ولو لم تكن رحمة الله العجيبة قد تدخلت فى الأمر ، لما استطعنا أن نعرف إلى أية هوة كان قد انحدر يعقوب، وما كان أبعد اليوم الذى استحق فيه اسم «إسرائيل».

(٣) أما الفشل الثالث فكان فى إقامته فى شكيم:

لم يقل له الله اذهب إلى شكيم، بل قال له: «أنا إله بيت إيل» (ص٣١: ١٣). لم تكن وجهة نظر شكيم بل بيت إيل. ولكننا مع الأسف ميالون جميعا إلى عدم إتمام تدبير الله، ومقاصده من نحو بركتنا ورفع مستوى حياتنا. وهكذا أتى يعقوب إلى إحدى مدن شكيم.

ولكنه فعل ما هو أشر، فإنه نصب خيمته أمام المدينة (ع١٨و١٩) كما فعل لوط عندما نصب خيمته أمام مدينة سدوم. ما الذى أتى به إلى هناك؟ أقنعته راحيل أن اختلاطهم بالناس يروح عن أنفسهم من سأمة معيشة الخيمة؟ أم أن أولاده اضطروه لذلك رغم إرادته؟ أم أنه خطر بباله أن يتخذ أولاده أصدقاء لهم من أهل تلك المدينة. مهما يكن السبب، فلا زالت تلك الحقيقة المحزنة قائمة، وهى أنه نصب خيمته «أمام المدينة».

ألا يزال هذا هو نفس تصرف الكثيرين من المسيحيين اليوم؟ فإنهم يعيشون على حافة العالم، على حدوده الخارجية. هم يعيشون خارجا عنه لكى يبرروا أنفسهم من الناحية الدينية، ولكنهم قريبون منه لكى يهرعوا إليه، ويغترفوا من ملذاته. إنهم يرسلون أبناءهم إلى المدارس العصرية لكى يحصلوا على مظاهر العالم الكاذبة وينالوا رضى أبناء العالم. إنهم ينتقلون إلى أحياء المدينة العصرية، ويتخذون أسلوبا معينا من الحياة، ويزجون بأنفسهم فى كل أجواء وتيارات العالم الجارفة. لكى يتمشوا مع أوساط العالم. إنهم يختارون كنيستهم

وتسلياتهم وصداقاتهم على قاعدة واحدة، هى تقليد الآخرين واختيار رفقاء لأبنائهم. ولكن أليس ذلك كما هو مجرد نصب الخيمة أمام شكيم؟

ومما يزيد القلب حسرة وأسى، أنهم كثيرا ما يقولون: ماذا نفعل؟ أولادنا يجب أن يكون لهم نصيب فى الحياة الاجتماعية، لأنهم لا يمكن أن يعيشوا نساكا أو معتزلين عن العالم، ولا يمكن أن نغلق عليهم إلى الأبد فى بيوتنا.

ولكن ما الذى يضطرنا إلى الزج بهم فى العالم؟ ألا يوجد الكثير من التسليات البريئة التى ينفث فيها العالم من سمومه القاتلة؟ ألا يوجد الكثير منها فى الاجتماعات العائلية الطاهرة، فى السمرات البريئة، الألعاب الرياضية، فى غواية الكتب، فى قراءة أخبار الأسفار والمخاطر، فى الترانيم الطاهرة والموسيقى، بل حتى فى تتبع أخبار العلم الحديثة - وذلك لقضاء ساعات الليل الطويلة دون الالتجاء إلى عشرة أهل العالم الذين لا تترك أبهج أوقاتهم فى النفس إلا تعطشا وشعورا بالحرمان فضلا عما تسببه من النتائج غير الإيجابية المرة؟ إن الديانة الحقة لا تحرم علينا الألعاب الرياضية، التزحلق على الجليد، أو التجديف، أو تسلق الجبال ... إلخ، ولا تمنعنا من تنمية مواهب الفنون الجميلة والموسيقى والخيال أو مواهب العلوم والشعر، لأن فى هذه كلها ما يبهج بيوتنا المسيحية دون أن تحزن الروح القدس أو نتسفل بمستوى الحياة. أما إذا أصر الوالدين والمربون على إيجاد أنواع أخرى للتسلية عدا هذه، فليعلموا يقينا بأنهم لابد لهم من دفع النفقة. إن أرادوا أن يعودوهم على لعب الورق وارتياد دور التمثيل والمراقص ... إلخ، فليعلموا أنهم سوف يدفعون الثمن غاليا، لأن من يعلب بالنار لابد أن يكتوى بسعيرها.

إننا لا نستطيع أن نفرغ كل اختباراتنا، نحن الشيوخ، فى قلوب وعقول الأحداث. ولكننا يجب أن نعطى الفرصة لأبنائنا، لكى يروا فى تصرفاتنا نورا وبهجة قلب، فلا ينفرون منا بل نربحهم للمسيح. ولكن ذلك ليس معناه أن نذهب بهم إلى الآبار المشققة التى حفرها أولاد العالم لأنفسهم والتى لا تضبط ماء. فإننا نستطيع - بشىء من الجهد والعناء - أن نجد لهم آبارا أخرى تنبع منها المياه الحية بشىء من الرواء والجمال يكفى لجذب تلك القلوب الغضة التى لم تتلوث بعد بأباطيل العالم وزخارفه.

على أن يعقوب فعل ما هو أشر من كل ذلك. فإنه لم يقنع بإقامة خيمة أمام المدينة،

ولكنه «ابتاع قطعة الحقل التى نصب فيها خيمته» (ع١٩). لقد اشترى إبراهيم قطعة الحقل التى يدفن فيها ميته، ولم يكن فى هذا التصرف خروج على روح الغربة، بل بالحرى كان فيه توطيد تلك الروح. ولكن عندما دفع يعقوب «المئة قسيطة» (وعلى كل واحدة منها صورة حمل)، فإنه كان قد أطلق الغربة وفكرة التغرب. إذ كان يشترى تلك الأرض التى وعد الله أن يعطيها له ولنسله. لو كان له الإيمان الوطيد، لانتظر بهدوء وثبات حتى يتمم الرب وعوده المتكررة.

ولعل يعقوب أراد أن يسكن ضميره ببناء المذبح وتكريسه لإله إسرائيل (ع٢٠). أو لعله فكر فى إيقاف تأثير المدينة الوثنية بهذه الوسيلة. بنفس هذه الطريقة يحاول مدعو المسيحية أن يجدوا علاجا لأولادهم، الذين ينغمسون فى الملذات العالمية طول الأسبوع، بأن يرسلوهم إلى الكنيسة يوم الرب. إنهم يسمحون لأولادهم بالانغماس فى العالم، ولكنهم يصرون على حضورهم الصلاة العائلية قبل النوم. حيثما اجتمع المذبح والعالم فليس هناك شك فى أيهما سيربح المعركة، فإن أبواب شكيم ستصادف هوى فى نفوسنا بإغراءاتها القوية، وأخيرا نجد أنفسنا وأولادنا قد انجرفنا فى شكيم، أما المذبح فتنمو حوله حشائش الإهمال أو يتحطم كلية.

«وخرجت دينة ابنه ليئة التى ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض» (ص٣٤:١). هذه مفاجأة عجيبة. ولكنها لا تتضمن شيئا أكثر مما كان متوقعا. يا لها من فتاة مسكينة. إنها فراشة تحوم حول النار، سمكة غبية تقترب من الطعم. أكانت تشعر بالوحدة والوحشة لأنها البنت الوحيدة؟ أذهبت لكى تتباهى بحليها أو لباسها؟ أكانت تتطلب تقديرا أعظم أو رفقة أبهج مما كانت تجده فى بيتها؟ أكان هنالك سر فى أن يهوى قلبها شبان ذلك المكان؟ لقد سارت فى ذلك الطريق الذى بدا لخيال شبابها أكثر بهجة من حياتها المعلة فى بيتها. ولم تذعن للتحذيرات التى ربما تكون قد وجهت إليها. ولم تكن نهاية ذلك الطريق إلا الشقاء والخراب والعار الذى لا يمحى كما حصل ويحصل كل يوم للآلاف والملايين من نظيراتها.

واستقبلت بكل ترحيب. والعالم على الدوام يرحب جدا بكل الذين يحملون اسم المسيحيين، لعل المسيحيين لا يجدون فى ذلك غضاضة طالما كانوا واثقين من أنهم سوف لا ينحدرون إلى مستوى العالم. ولكن لنحذر كل الحذر كلما أحسن استقبالنا ورحب بنا

وأطرينا بكلمات المديح والثناء. قال مرة أحد أولاد الله: أى شر فعلت حتى يثنى على ذلك الشخص العالمى.

ثم أمالت قلب أحد الشباب. وأخيرا سقطت فى الخطية. هذه هى الرواية القديمة جدا والتى تتجدد كل يوم. فى اليد الواحدة المناصب والثروة والشهوة الجامحة، وفى اليد الأخرى الجمال والضعف ومداعبة التجربة. ولمن يعزى سبب سقوطها؟ هل إلى شكيم؟ نعم. هل إلى نفسها؟ نعم. ولكنه فى نفس الوقت يعزى ليعقوب، فإنه يجب أن يلومن نفسه إلى الأبد بسبب القضاء على عفة ابنته. ولكن ماذا كان عساه أن يجدى اللوم بعد ارتكاب الخطية بالفعل، وبعد انهدار كرامة بيته وبعد أن أنتن اسمه بين سكان الأرض.

ليت بعض الآباء المسيحيين الذين يقرأون هذه السطور يتنبهون إلى عاقبة الطرق التى يشجعون أبناءهم للسلوك فيها. فإنهم إن صدوهم الآن عن هذه الطرق، وفروا على أنفسهم أنهارا من الدموع السخينة وسنين من الأحزان غير المجدية. وليسمحوا لى أن أنصحهم بكل ما فى من قوة بأن لا يزجوا بأبنائهم فى التيارات الجارفة التى لا شك فى أنها تجرفهم إن لم يكن عاجلا فآجلا.

كل ذلك حدث لأن يعقوب نزل عن مستوى إسرائيل إلى طبيعته القديمة. ولعلك أيها القارىء العزيز قد تصرفت نفس هذا التصرف. لعلك قد حضرت اجتماعات حركت فيك أقدس الرغبات وأعمق الاختبارات، وتحت هذا التأثير ظننت أنك لن تعود إلى طبيعتك القديمة، بل من نعمة إلى نعمة حتى تصل إلى جبل التجلى. لعلك قد تعمقت فى الاختبار إلى أكثر من هذا، لعلك فى مخاضة يبوق قد التقيت بملاك الله وانخلع حق فخذك تحت لمسته ونلت بركته. ولكنك... رغم كل ذلك، قد رجعت إلى الوراء، وعدت إلى طبيعتك القديمة، وإلى مستوى حياتك السابقة، ثم رحت تعجب كيف أمكن بعد تلك الاختبارات الروحية العميقة أن تذبل تلك الاختبارات.

والآن، لنتأمل فى أسباب الانتكاس، وفيما يمكن اتخاذه من الاحتياطات لمنع تكراره.

إنه ينشأ أولا من الاتكال على البركات التى ننالها فى وقت معين كأنها كافية لحفظ النفس كل الأيام القادمة، الأمر الذى يتسبب عنه تراخ فى السهر والصلاة ودرس الكتاب.

نحن جميعا ميالون إلى الاستعاضة بتلك البركات عن عشرة ابن الله الدائمة، إلى التأمل فى الماضى، والافتخار به والاتكال عليه، بدلا من التأمل فى الوقت الحاضر، وإلى الاكتفاء بالمن الذى يكفينا اليوم. هذه الغلطة الشائعة فى الحياة المسيحية يمكن تجنبها بتجديد شركتنا بمخلصنا الحبيب كل يوم بل كل ساعة. وحتى هذا لا يمكن الحصول عليه بمجرد أى مجهود أو عزم من جانبنا، بل نعمة الروح القدس الذى يستطيع وحده أن يعلمنا فن الشركة اليومية.

وقد ينشأ ثانيا من حياة البر الذاتى التى يسميها الرسول بولس «الجسد»، إننا قبل التجديد نحاول أن نبرر أنفسنا. وبعد التجديد نحاول أن نقدس أنفسنا. وفى الاجتماعات الروحية الحارة يحاول الكثيرون من المسيحيين المخلصين أن يكرسوا ذواتهم. وفى كل من هذه الحالات يكون كل مجهود فاشلا بسبب الاتكال على المجهود الذاتى. فيجب أن يكون الله الكل فى الكل. ولنطلب منه أن يستلم حياتنا ويحفظها ويختمها بخاتم الروح القدس. يجب أن نعطى الله مجالا أوسع فى حياتنا. يجب أن يكون شعارنا «لأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى».

وتنشأ هذه السقطات ثالثا من تخوفنا من ركود المؤثرات القوية والعواطف الحارة التى كانت تملأ قلوبنا يوما ما، وتخيلنا بأننا بفقدها قد فقدنا فعلا تلك الحياة الروحية التى قد بدأناها حينئذاك. إن هذه العواطف الحارة لا يشترط أن تظل كاختبار دائم لكل المسيحيين. لأن الله يسمح أحيانا أن يحرمنا منها لكى نحيا حياة الإيمان.

ومهما كانت أسباب السقوط، فإنها قد تكون أيضا مقترنة بإحجامنا عن الاعتراف للآخرين ببركات الله التى أنارت حياتنا. ليس من الضرورى أن نكشف أعمق اختبارات نفوسنا لكل من هب ودب، على أننا يجب أن لا نتردد عن الاعتراف بأفواهنا أن يسوع المسيح رب، والاعتراف لأقرب الناس إلينا عن العظائم التى أتمها الرب معنا، لأن عدم الاعتراف كثيرا ما كان سببا فى سد ينابيع البركات.

إن كنت تشعر بأنك قد سقطت فى أية ناحية من هذه النواحى فاطلب من الله الصفح والغفران، ثم اطلب منه أن يرد إليك محبتك الأولى وأن يعيدك إلى حيث كنت. اتكل عليه فإنه يحفظ النفس الأمينه. وثق بأنه قادر أن يمسك بيمينه فتصير مثل كوكب ساطع ويجعلك منارة فى هيكله المقدس.



عودة إلى بيت إيل (تك٣٥)

يارب إن قلب الإنسان قد سادته الظلمة
وانتسفت عنه كل حكمة
فأعلن له عمود السحاب وعمود النار
وبيدك اليمنى غير المغلوبة
أرشده وسط برية هذا العالم
حتى يصل إلى كنعان السماوية

بروكتر

لم تكن بيت إيل فى حد ذاتها شيئا يذكر. تصور سلسلة من الجبال القليلة الارتفاع ممتدة شمالا وجنوبا. وعند منحدر سفحها الشرقى يقع نهر الأردن. أما سفحها الغربى فإنه ممتد وسط أكثر بلاد فلسطين ازدحاما. كانت تلك المنطقة صخرية، لا زرع فيها ولا نبات، ولا ترى فيها حيوانات سوى النسر والأرنب والعنز البرى.

أما يعقوب فقد كان يرى فى بيت إيل أقدس بقعة على وجه الأرض، لأنه فى الليلة الأولى التى هرب فيها من وطنه، رأى فيها ذلك السلم الرمزى، الذى بدا له بأنه يربط الأرض بالسماء، مكتظا بالملائكة المنشغلة فى خدمتها المقدسة.

مرت على هذه الحادثة سنوات عدة اختبر فيها اختبارا فاحصا كشف كل ما فى قلبه من دناءة ومكر وخداع طبيعته. لقد نقض كل عهوده الأولى، أما طبيعته الصالحة فقد كانت لا تتغلب على طبيعتها الشريرة إلا وقتيا، وأما الصراع الملائكى فلم يرفعه إلى مستوى إسرائيل

إلا إلى حين. وقد بدت منه أخيرا بعض علامات أشر. فإن حياته على أبواب شكيم قد تسفلت به عن مثله العليا ومقاصده النبيلة، ووضعته فى مستوى أولئك القوم الذين عاشرهم. بل يظهر أنه كان يتغاضى عن الأوثان التى كانت قد انتشرت وسط شعبه والتى كان يعلم تمام العلم بانتشارها. لقد مر عليه الوقت الذى إن أرادت فيه امرأته العزيزة الحصول على تمثال «منحوت» لا تستطيع ذلك إلا خلسة. أما الآن فقد فترت غيرته حتى لم يعد أى فرد من أهل بيته فى حاجة لإخفاء أمر تلك التماثيل (ع٢).

فيا لها من سقطة شنيعة هوى إليها ذلك الرجل الذى بنى مذابح عدة ليهوه، والذى اختير ليكون مستودعا لتلك الحقائق التى كان ينتظرها العالم. لهذا كان من الضرورى - لمصلحة العالم ولمصلحته هو شخصيا - أن يلزم باستعادة مركزه الذى فقده. وحينئذاك قال لأهل بيته «لنقم ونصعد إلى بيت إيل» (ع٣). كان هذا الإحساس طبيعيا. فإن المهاجر عندما يكبر ويصل إلى درجة النضوج لابد أن يحس بحنين متزايد إلى وطنه الذى ولد فيه. من ثم يتطلع إليه بنظرات ملؤها الشوق والحنين، ثم يقوم مرتحلا إليه. ورغما عن أنه يجد المكان مقفرا، فإنه لا يشعر بشىء من الفشل لأنه قد أطفأ لهيب شوقه. هذا ما أحس به يعقوب. فإن صوتا (وإن شئت فقل إيحاء) ناداه قائلا قم واستوطن فى بيت إيل فترة ما، تطلع مرة أخرى إلى مناظرها التى ألفتها، توسد ثانية ذلك الحجر الذى أقمته عمودا للشهادة، وتأمل فى الطريق الذى هداك إليه الله.

على أن ظروفه المشئومة كانت سببا آخر لذلك الإحساس. فقد كان فى ضنك شديد، إذ أنه كان قد استقر فى ذلك المكان وحفر لنفسه بئرا يرتوى منها، هى التى اشتهرت فى الأجيال المتعاقبة ببئر يعقوب، وقضى على هذه الحال عدة سنوات فى حياة خاملة حتى جعل أولاده اسمه منتنا بين سكان الأرض بسبب الانتقام المريع الذى انتقموا به لشرف أختهم، الأمر الذى جعله مهددا بالموت من القبائل الحانقة التى حوله. لهذا كان لابد له من مغادرة المكان إلى مكان آخر. وفى تلك اللحظة أحس بميل للذهاب إلى بيت إيل.

لعله لم يكن يحفل بذلك الإحساس لو أنه وجد راحة فى المكان الذى كان فيه، أما الآن

وقد انعدمت الراحة، بل هددته الأخطار، فقد صار أكثر استعدادا ليجرب ماذا عساها أن تقدم له بيت إيل من راحة وأمن. إن البئر الجافة كثيرا ما قادت النفس إلى النهر الخارج من عرش الله.

وفوق كل ذلك، فقد كان الباعث لذلك الإحساس هو الله نفسه. «ثم قال الله ليعقوب قم اصعد إلى بيت إيل وأقم هناك» (ع١). لا تستطيع الآن أية أذن بشرية أن تتمتع بنغمات ذلك الصوت الملكى الشجية. ومع ذلك، فإن الله طالما تحدث إلينا نحن أيضا - فى ضمائرنا وفى أعماق نفوسنا - نعم، إنه يتحدث إلينا أكثر مما نظن وأكثر مما نعى. فنحن لا نميز دائما الصوت الذى فى داخلنا بأنه هو صوت الله. وكثيرا ما نفعل، مدفوعين بإحساسات داخلية دون أن نعرف لماذا. على أننا عندما نتأمل طريقنا السابق من قمة الحياة الروحية التى نصل إليها، ندرك بشكر عظيم أن ذلك الصوت الذى سبق أن أصغينا إليه لم يكن إلا ذلك الصوت الذى سمعه يعقوب عندما تحدث إليه فى حلم السلم الملائكى. ألم يكن هذا هو اختبارك؟ هل انقدت وراء إحساس داخلى دون أن تعلم من أين أتى أو إلى أين يقودك؟ لقد سرت بدون وعى إلى أن وصلت إلى مراكز لم تكن تحلم بها، ولكنها هى الدائرة المخصصة لك. وبعد التأمل إلى الوراء فى المرحلة التى قطعتها، تتحقق أن كل خطوة كانت مرتبة بحكمة ليست حكمتك، وأن ذلك الإحساس كان الباعث إليه ذاك الذى يلهم العصافير أن تتبع الشمس إلى بلاد أكثر دفئا، وأن ذلك الصوت الذى ناداك كان هو صوت الله.

على أن هنالك ما هو أفضل من هذه الطاعة العمياء، وليت كل أولاد الله يصلون إليه. إن الله يتحدث إلينا دواما فى حوادث الحياة اليومية. إن له مقصدا وله رسالة فى كل حادثة يسمح بحصولها. فمن الحكمة إذن أن نعنى بتحليل كل الغوامض التى تنطوى على مقاصده، وأن نطيل التفكير فى كل حادثة لندرك الرسالة التى قصد أن يرسلها فيها. ومن الحكمة الأوفر أن نقبل كل ما يرسله إلينا ونطيعه بلا بحث أو جدال.

ولماذا أراد الله أن يعود يعقوب إلى بيت إيل؟ لأن بيت إيل كانت تقترن بأمجد اختباراته الروحية العميقة. ولذا كانت الدعوة للعودة إلى بيت إيل معناها الدعوة للعودة إلى تلك الغيرة.

وتلك الحياة الروحية العميقة، وتلك التعهدات التى جعلت البرية المقفرة بيت الله وباب السماء. ارجع وكن قريبا منى كما كنت عندما أقمت ذلك الحجر للمرة الأولى ودهنته بالزيت.

هنالك كلمات لا يمكن أن تسمعها آذاننا دون أن تحرك فينا توا أعمق التأثيرات. فإنها تأتى إلينا كالموسيقى بسحرها أو الرائحة العطرية بأريجها، وتعيد إلينا الذكريات القديمة والتأثيرات السابقة. ولابد أن يكون اسم «بيت إيل» قد أحدث فى سمع يعقوب هذا التأثير، إذ حرك أقدس عواطفه، وبعثها من سباتها العميق، وبدد كل ظلمات نفسه الداخلية. وسرعان ما وجدت هذه الدعوة قبولا من نفسه «فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التى بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم ولنقم ونصعد إلى بيت إيل» (ع٢و٣).

وهكذا وصل بيت إيل محفوظا بعناية الله الساهرة، وبنى هنالك مذبحا، وظهر له الله ثانية.

(١) هنالك مسيحيون كثيرون مصابون بفتور فى حياتهم الروحية:

إنهم قلّما يتحققون من ذلك لأن الفتور قد تسلل إلى نفوسهم خفية بسبب ابتعادهم عن بيت إيل وفنيئيل. يخط الشعر الأبيض فى رأس الرجل قبل أن يدركه. وفاكهة الصيف تتعطن من الداخل قبل أن يبدو العطن على قشرتها الخارجية. وعلاقة الأوراق بالغصن تنقطع حتى إن بدت خضراء. والشيطان حكيم جدا بحيث يستخدم يهوذا لإتمام ضربته، ويبعدنا عن المسيح بمهارة فائقة. قد نستبعد جدا على أنفسنا السماح للأسد بالدخول، ولكننا إن نغفو عن الثعالب الصغيرة التى تقوض أركان السور، فإن الأسد يدخل بمنتهى السهولة. قد نستبعد جدا على أنفسنا السماح لدليلة بقطع خصل الشعر السبع، ولكننا لا نعترضها كثيرا إذا ما ربطته بحبالها الطرية مع أنها ستتقدم من حيلة لأخرى. هكذا ربما كنت أيها القارئ العزيز تتباعد وأنت لا تدرى حتى ابتعدت جدا عن الله أكثر من الأيام السعيدة المقدسة السالفة.

(٢) والأصنام هى العلامة المحتمة للفتور فى درجاته الأولى:

اذهب إلى الغابات فى الخريف تر كيف أن أسرابا من الحشرات، لا حصر لها منتشرة

فى الطرقات التى تتخلل الغابات. لقد كانت تلك الحشرات موجودة فى الأرض طول الصيف، ولكنها كانت عديمة القوة على التناسل بسبب جفاف الجو وحرارة الشمس. أما الآن فإنه لا يمنعها شيء لأن رطوبة التعطين هى غذاؤها الأساسى. إذن، فكلما ازدادت هذه الحشرات انتشارا وتوالدا، أيقنت أن التعطن متوفر، والفساد قد دب دبيبه. بنفس هذا التشبيه نستطيع القول إنه كلما أقبل خريف التعطين على الحياة الروحية تأكدت من نمو حشرات الأصنام، وهى العلامة المحزنة على أن الصيف الجميل قد عبر أو على وشك مفارقة النفس.

قد تنجح فى إخفاء الأصنام كراحيل، ولكنها لا يمكن أن تبقى خافية بصفة دائمة. فإنها لابد أن تعمل عملها حتى تصبح الخطية التى كنا نحاول إخفاءها موضوع افتخارنا. ربما يقرأ هذه السطور أحد المرتدين وهو يشعر أن العلاقة بينه وبين الله الآن ليست كما كانت بالأمس. لا شك أن شخصا كهذا لو رجع إلى نفسه لاعترف بمرارة أن تعطن وفساد حياته الروحية كان بنسبة نمو صنم محبوب. لقد وجهت كل قلبك لطلب الصيت أو عمل ثروة، لقد أحببت صديقا شريرا محبة عالمية، لقد أسرفت فى محبة شيء أو شخص بعيد عن الله، وبقدر ازدياد جهودك وتفكيرك فى هذه الناحية قد تناقضت جهودك وتفكيرك فى الناحية الأخرى «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر».

(٣) يجب تسليم هذه الأصنام قبل أن تكون هنالك نصرة أو سلام:

كان سبب هروب يعقوب أمام أولئك القوم العزل يرجع بطبيعة الحال إلى تصرف بنيه العديم الشفقة، ولكن فوق ذلك وقبل ذلك يجب أن لا نغفل أن يعقوب كان يسمح - إلى حد ما - ببقاء الأصنام فى المحلة. إننى أعتقد دواما أن الفشل والانكسار فى دائرة الحياة الروحية يدلان على وجود صنم معين فى ناحية معينة، وعلى ضعف حياة التكريس لله. قد يكون الصنم مخفى، وقد تكون راحيل التى يعزها ويحبها قلبك هى التى خبأته. ولكن إن كان موجودا، فاعلم بأنه هو سبب الفشل لا محالة. قد تقول إنك لا تجد نفسك قادرا على غلبة الخطية المحيطة، إنك تتعثر وتسقط قبل أن تتطلع إلى المسيح، إنك أحيانا تكون حارا تتقد غيرة وبعدها تكون باردا كالثلج، وإنك تشعر كأن المسيح قد تخلى عنك. فى أحوال كهذه اجث

على ركبتيك، أخرج الأصنام من قلبك، فتش كل الأمتعة المحملة على الجمل، رغم كل ما تدعيه راحيل، أخرج الحرام وادفنه. انزع الثوب المدنس من الجسد. بذلك فقط تستطيع أن تبدأ حياة النصرة. وإلا ظهر لك الله مرة أخرى.

كم كان يعقوب حكيما جدا عندما طمر تلك الأصنام عاجلا (ع٤)، لأنه لو كان قد أبقاها أو نقلها معه ربما كان قد جرب بإخراجها ثانية. لهذا كان خيراً له جدا أن يتركها هنالك «تحت البطمة التى عند شكيم» قبل أن يرحل إلى بيت إيل.

لست أظن أنه كان ممكنا له الاتكال على عناية الله المخلصة لو لم يتصرف بهذه السرعة وبهذا الحزم. لأن الله لا يقبل أن يرافق مجموعة من الأصنام لحراستها. إذن، فأحرق الكتب التى قد لوثت عقلك. واقطع اليد التى أعثرتك. واهجر الخمرة التى قد تسلطت عليك لهذا الحد، ولاش كل ما يسبب لك العثرة لئلا تجرب بالعودة إليه. اقطع كل علاقة بالشر بلا رجعة. اطمر الأصنام «تحت البطمة». قال أحد الشبان لأمه: لقد بدأت الخطوة الأولى فى المسيحية يا أماه إذ قد أحرقت كل كتبى العاطلة. لهذا فلا نعجب من عمل الله العظيم الذى أتمه فى أفسس بعد إحراق الكتب فى السوق (أع١٩:١٩).

كيفما كان الرجل، فإن عائلته فى معظم الأحوال تكون مثله. عندما رأت محلة يعقوب أنه يتقد غيرة «أعطوه كل الآلهة الغريبة التى فى أيديهم والأقراط التى فى آذانهم» (ع٤). إن علينا أجمعين مسئولية خطيرة فى حياتنا العائلية، بأن لا نشترك فى خطايا أى فرد فى العائلة بإغضائنا عنها. عندما يرى الذين حولنا بأننا فى غاية الحزم والثبات، فإنهم لا يدعوننا نذهب إلى السماء وحدنا، ولابد من أن تلحق الزوجة وأبناؤها بزوجها إن عاجلا أو آجلا (راجع «سياحة المسيحى») «فأتى يعقوب إلى لوز التى فى أرض كنعان وهى بيت إيل هو وجميع القوم الذين معه» (ع٦).

إذن، فهذه هى رسالتنا الختامية فى هذا الفصل. أبعد أصنامك عنك وعد إلى بيت إيل. تب واعمل الأعمال الأولى. صل كما كنت معتادا أن تصلى، ادرس الكتاب المقدس كما كنت معتادا أن تدرسه. اصرف يوم الرب كما كنت متعودا صرفه. ابن الآن مذبحا فى

نفس المكان الذى بنيته فيه منذ سنوات طويلة. سلم نفسك له ثانية. صحيح أنك قد أضعت فرصا كثيرة وتركت وراءك تاريخا محزنا، ولكن لا تضيع وقتا أطول فى التأسف غير المثمر. انس ما هو وراء وامتد إلى ما هو قدام. فيظهر لك الرب ثانية ويجدد لك الاسم الملكى والبركة المجيدة التى ظننت أنك قد خسرتها للأبد.

وفوق ذلك، يعطيك وعدا بحياة الخدمة المثمرة جدا، وبممتلكات واسعة النطاق فى أرض الموعد (ع١١و١٢).

كل هذه الأمور مدّخرة لك لو أنك طمرت أصنامك وصعدت إلى بيت إيل وأقمت فيها. «خير ورحمة يتبعانك كل أيام حياتك» (مز٢٣:٦)، «ارجعوا أيها البنون العصاة فأشفى عصيانكم. ها قد أتينا إليك لأنك أنت الرب إلهنا» (إر٣:٢٢).





مدرسة الأحزان (تك٣٥-٤٢)

كل المساوىء التى نشاهدها
والأسرار الغامضة المحيطة بالأحزان التى نكابدها
لها مفتاح واحد
هو أن هذه الحياة الغريبة المتعبة
إن هى إلا مدرسة قد أعدها الله لنا
وهو بمحبته يتحكم فى كل الظروف التى نجوزها
والأحداث التى تنتابنا

هافرجال

فى مصانع الأوانى الخزفية نرى بعض العمليات توضح حياتنا بأجلى وضوح. وضمن العمليات التى تعطينا دروسا ثمينة جدا، عملية تثبيت الألوان السابق نقشها على الأوانى. لا شك أن تلك الرسوم البديعة والألوان الزاهية التى تبهر أبصارنا تحتاج إلى مهارة فائقة. ومهما كانت تلك المهارة بالغة حد الكمال فإن تلك الألوان لابد زائلة ما لم تكن هنالك طريقة أخرى لتثبيتها. وهذا يتم بوضع الأوانى - بعد نقش تلك الرسوم عليها مباشرة - فى أفران تتعرض فيها لحرارة شديدة جدا فتحترق فيها الألوان وتثبت.

هكذا يفعل الله فى كثير من الأحيان لتثبيت بعض البركات العظمى التى ننالها. إنه يحرقها فينا بوضعنا فى بوتقة الآلام والأحزان. هذا ما لاحظته فى كثير من الأحيان حتى أصبحت لا أعجب عندما أسمع الكثيرين يتحدثون عن التجارب الشديدة التى حلت بهم منذ اللحظة التى اقتربوا فيها من المسيح. يجب أن يكون الأمر كذلك، وإلا ذبلت من نفوسهم تلك

البركة التى قد حصلوا عليها، كما تذبل ألوان غروب الشمس من الأرض والسماء، أو كما تتلاشى الصورة الفوتوغرافية من الألواح الزجاجية ما لم «تثبت» فى الغرفة المظلمة.

وفى هذه الناحية توجد مشابهة تامة بين اختبار يعقوب واختباراتنا. ومن هذه المشابهة نتعلم مرة أخرى أن الحياة الروحية هى هى بعينها فى كل البشر ولو تباعدت الأجيال، وأن الكتاب المقدس هو كلمة الله لأنه صادق كل الصدق فى تصوير الإنسان.

عندما رجع يعقوب إلى بيت إيل، تاركا أصنامه خلفه، ورمم المذبح الذى كرس عليه نفسه من جديد، يخبرنا الكتاب المقدس صراحة أنه قد «ظهر الله ليعقوب أيضا (أو ثانية) وباركه» (ص٣٥:٩). هل يثق جميع القراء الأعزاء أن بركة القدير مستقرة عليهم كما سطع نور الرب عند التجلى على قمة الجبل وحول الظلام نورا؟ هل أعلن الله نفسه إليكم ثانية بعد الفترة الطويلة الماضية التى زغتم فيها عن الحق؟ هل عاد المرتد إلى بيت الله ثانية وإلى باب السماء؟ إذا لم يكن الأمر كذلك، أليس الأفضل أن نفعل كما فعل يعقوب؟ اطلب من الله أن يعلن لك أصنامك. أخبره بأنك تريد أن تكون بكليتك له وحده دائما. اطرح عنك لا خطاياك فقط بل وأثقالك أيضا، أى كل ما يعطلك عن الركض والجهاد فى الحياة المسيحية. وإذا لم تستطع ذلك من نفسك، فأخبره بأنك تريده أن يطرحها عنك. وإذا لم تستطع أن تخبره بأنك تريده أن يتم ذلك، فأخبره بأنك تريده أن يخلق فيك الإرادة .. وبعد تسليم إرادتك بهذه الطريقة، سلم نفسك له ثانية. توسل إليه بأن يمتلك حياتك بكليتها. اطرح نفسك كاسحق على مذبح التكريس، واذكر أنه مستعد أن يأخذ كل ما نعطى. وفى اللحظة التى نقدمه فيها، قد يظهر لنا حالا، ويملأ قلوبنا بالفرح السابق المجيد. وقد يدعنا ننتظر قليلا، ولكن ذلك لا يهمنا كثيرا - نسبيا - طالما كنا نستطيع أن نقول بثقة الإيمان الذى لا يتزعزع «نحن له، فمن يستطيع أن يفصلنا عن محبة الله».

كانت بركة عظمى حقا تلك التى منحها الله ليعقوب إذ قال له «لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل». لقد سبق أن نطق الملاك بكلمات مشابهة فى فنيئيل (ص٣٢:٢٧-٣٠)، ولوقت قصير، أضاءت حياته بنور ملكى. ولكن ذلك النور كان وقتيا، كالنور الذى يسطع إلى لحظة على بحر متلاطم الأمواج ثم يختفى سريعا. ولكنه منذ تلك اللحظة تم

فيه تغيير روحى عميق، وارتفع منسوب اختباراته إلى مستوى «إسرائيل» (الأمير) الذى كرر له الآن للتأكيد بأن هذا هو نصيبه الأبدى. وعلى الفور دخل بوتقة التجارب المحرقة التى ثبتت اسمه وثبتت صفاته وأخلاقه.

لم يقتصر الأمر عند هذا الحد. فإن الله أقامه أبا لشعوب وملوك، ووعده بإعطائه الأرض التى كان فيها غريبا تائها كأبويه من قبل. هذان الوعدان: وعد الكثرة والإثمار، ووعد الامتلاك، اللذان لا يمكن أن يكونا إلا من نصيب من يتخرجون من مدرسة الآلام. فإن أبناءنا لا يولدون إلا بالتعب والوجع، ونحن بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت السموات. فلا يظن أحد أنه يستطيع الحصول على البركات الروحية العظمى دون دفع الثمن. إذ أن ربنا نفسه تكمل كرئيس خلاصنا وكاهننا الأعظم بالآلام (عب٢:١٠)، وبآلامه «صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدى» (عب٥:٨و٩).

لا داعى إذن للتوسع فى تتبع الأسباب التى لأجلها غمرت حياة يعقوب من تلك الساعة بالأحزان الخارجية. ولكن لنتأمل قليلا فى ماهية تلك الأحزان. فنجد – مع السرور– أنه كلما اشتدت تلك الأحزان، ازداد يعقوب تعمقا فى الحياة الروحية، وازداد إثمارا وجلالا ملكيا. فإن يعقوب كان فى تبدل مستمر إلى إسرائيل «الأمير». ألا يذكرنا هذا بمن قال «إن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوما فيوما» (٢كو٤:١٦)؟ إن ضيقتنا خفيفة ووقتية إذا قورنت بثقل المجد الأبدى الذى تنشئه (٢كو٤:١٧).

فى إصحاح واحد (ص٣٥)، يتحدث الكاتب عن دفن ثلاثة أشخاص، علاوة على دفن الأصنام فى شكيم. وهذه كانت مبتدأ الأحزان.

أولا، فإن دبورة ماتت. تلك المرضعة المحبوبة التى رافقت سيدتها الشابة إذ غادرت وطنها منذ سنوات طويلة لكى تكون زوجة لاسحق. لهذا فقد كانت حلقة اتصال ذهبية بالماضى المجيد.

لاشك فى أنها كانت تقص الأخبار السارة عن مجد تلك المحلة التى كان يرأسها إبراهيم خليل الله. كما كانت تقص الأخبار الأسيفة عن مرارة العلقم التى شربتها رفقة،

نتيجة نصيحتها لابنها العزيز الذى قضى عليها بأن لا تراه ثانية، والذى سبب بعده عنها ذبولها تدريجيا حتى قضت نحبها. لعل موت رفقة قد جعل محلة اسحق كريهة جدا فى عينى تلك الخادمة العجوز الأمينة، ولذا فقد انتهزت أول فرصة للذهاب إلى ذاك الذى أحبته هى أيضا لكى تقضى أيامها الأخيرة معه.

لا شك فى أن يعقوب قد اشتد حزنه إذ دفن بقايا أخلص أصدقاء أمه تحت البلوطة فى بيت إيل. وكان حزنه عليها غير عادى، كما هو ظاهر، حتى دعيت البلوطة فيما بعد «ألّون باكوت» أى بلوطة البكاء (ص٣٥:٨) (انظر هامش الكتاب المقدس).

على أنه كان هنالك حزن أشد ينتظره. فإنهم ارتحلوا فى بيت إيل ولم يكن هناك سوى طريق قصير للوصول إلى أفراتة. كانت مقدمة الركب قد وصلت أول المدينة، وفجأة سمع صوت من المؤخرة للتوقف عن المسير. فإن راحيل المحبوبة لا تستطيع أن تتقدم خطوة أخرى. وإذ اشتد الوجع ودنت ساعة الخطر، سادت السكينة على كل المحلة ووجمت قلوب الجميع. الكبار والصغار، العبيد والبنين. لقد وقفوا فى الطريق فى حيرة واضطراب وارتباك، ينتظرون حتى تلفظ المحبوبة النسمة الأخيرة. وكان هذا منظرا رهيبا لا يمكن أن ينساه أحد ممن شهدوه، وخاصة يعقوب. فإنه، إذ كان هو أيضا على فراش الموت فى مصر، رجعت إلى ذاكرته هذه الذكرى بمرارتها وقوتها، كأن الجرح لم يندمل بعد، وكأن الثلاثين عاما التى مضت على هذه الحادثة، لم تستطع أن تزيح عن قلبه كآبتها ومرارتها. قد يستطيع الإنسان أن يتناسى الأحزان، ولكنه لن يستطيع أن يمحوها من قلبه.

على أن كآبة كل تلك القلوب المخلصة الأمينة لم تستطع أن تحتجز تلك النفس الكريمة وتمنعها عن ارتحالها.

فإن هذه الأم لم تعش أكثر من أن ترى طفلها الثانى، وتسجل حزنها ومرارة نفسها فى الاسم الذى أطلقته عليه، وبعد ذلك ماتت ودفنت هناك فى طريق أفراتة التى هى بيت لحم.

ولأن يعقوب لم يستطيع دفنها مع باقى عشيرتها فى مغارة المكفيلة، فقد كان حزنا بالغًا جدا له فى السنوات التالية. على أنه لم ينس قط تلك البقعة الموحشة فى طريق أفراتة

(ص٤٨:٧) وعندما دارت عجلة الزمان. وأحدثت الكثير من الأحداث والتغييرات، واشتهرت تلك البقعة بأنها مولد ابن يسى العظيم (أى يسوع)، خيل لأذن النبى بأنها تستمع إلى بكاء راحيل على أولادها، كأن روحها لا زالت ترفرف على تلك البقعة. ولا زال السائحون إلى اليوم ينعطفون نحو قبر راحيل لينحنوا أمامه إجلالا واحتراما.

ثم كان هنالك وجع آخر حز فى قلب ذلك الرجل الذى أحنت ظهره التجارب والأحزان. إننا كثيرا ما عانينا الأمرين بسبب خطايا من نحبهم. وعندما رأى يعقوب أن كلا من رأوبين ويهوذا قد تلطخ بدنس تلك الخطية التى ذكرها أيضا قبيح فلعله قد شرب أمر كأس فى حياته.

لم يقف الأمر عند هذا الحد. فإنه عاش حتى رأى النزاع والشقاق والبغضاء تمزق بيته.

فالإخوة الكبار حسدوا وأبغضوا أخاهم الصغير يوسف ابن راحيل محبوبته، وابن شيخوخته، ولا شك فى أن تحيزه وتمييزه ليوسف عنهم قد زاد النار اشتعالا. فقد كان خطأ جسيما منه أن يميزه بالقميص الملون، الأمر الذى كان يدل - حسب اصطلاح أهل البلاد - على أنه وارث العشيرة ورئيسها. على أننا نستطيع أن نفهم بسهولة كيف كان طبيعيا أن ينجذب الوالد نحو ابنه الذى كان ممتازا فى كل شىء حسن، والذى كانت أحلامه تعبر عن مستقبله المجيد «فحسده إخوته، وأما أبوه فحفظ الأمر» (ص٣٧:١١).

لكن كان هنالك ما هو أشر من الكل. ففى أحد الأيام أحضر إليه أبناؤه القميص الذى يعرفه جيدا، ولكنه كان ملطخا بالدماء. «وجدنا هذا، حقق أقميص ابنك أم لا» (ص٣٧:٣٢). لعله قد خامر عقله الشك فى أن حيلة ما قد عملت. ولو صح هذا فإنه لابد أن يكون قد حفظ الأمر لنفسه، ولم يصرح به إلا عفوا فيما بعد فى مرارة نفسه (ص٤٢:٣٦). وهو على الأقل اعترف باعتقاده أن وحشا رديئا افترس ابنه، وأن يوسف قد تهشمت عظامه. لا يستطيع أحد أن يدرك كيف كان حزنه على ابنه إلا الذين جازوا ظروفا مماثلة، ولقد أحدث حزنه هذا تأثيرا بالغا فى نفوس أبنائه «فقام جميع بنيه، وجميع بناته ليعزوه. فأبى أن يتعزى وقال إنى أنزل إلى ابنى نائحا، وبكى عليه أبوه» (ص٣٧:٣٥).

ولكن حزنا آخر كان مختزنا له. فإنه دعى بعد هذا ليرى أباه وهو يلفظ النسمات الأخيرة. وربما ليسمع مرة أخرى الشفتين المرتعشتين تنطقان بالبركة التى كلفته كثيرا «فأسلم اسحق روحه ومات وانضم إلى قومه» (ص٣٥: ٢٩)، انضم إلى شعبه الكثير العدد الذين لا ينال شرف الانضمام إليهم إلا كل وديع ومتواضع القلب... ترى من هم شعبنا الذين سننضم إليهم يوما ما؟

ودفنه الابنان. إذ أتى عيسو من أدوم، عيسو الذى كان ناجحا ومفلحا ماديا وعالميا، عيسو الذى كان يترقب هذه اللحظة منذ سنوات طويلة، باعتبارها فرصة مناسبة لإتمام الغاية التى كان يصبو إليها نحو قتل أخيه يعقوب، ولكنه هدأت أعصابه، وسكنت ثورة غضبه بتأثير مرور الزمن. ويعقوب الذى كان مثقلا بالهموم، ومغتما بسبب خسائره الأخيرة، أتى إليه - يخمع على حق فخذه - ليعينه. هنالك وقفا برهة، التوأمان اللذان قضيا حياتهما فى منازعات مستمرة، اصطلحا أمام رهبة القبر، وسرعان ما اتخذ كل منهما طريقا مخالفة لا تلاقى بعدها إلى الأبد هما وأولادهما وأولاد أولادهما.

نحن نضع أيدينا فى أيدى رفقاء فجر الحياة، ونعبر معا المجرى الضيق الصغير مهما حاول التيار أن يفصلنا، ومهما ازداد قوة وازداد المجرى اتساعا، بعد ذلك تنفصل الأيدى عن بعضها ويسير الصديقان جنبا إلى جنب كل يرى صديقه ويستمتع بحديثه. ثم يبسط النهر العظيم أرجاءه بينهما فلا يعود الواحد ينظر أو يسمع شيئا سوى أمواج البحر المتلاطمة. فعلى المحبين أن يبذلوا قصارى جهدهم ليسيروا معا على شاطىء واحد من النهر إن أرادوا أن يتفادوا انقطاع الصلة إلى الأبد.

وفى مرارة حرمان يعقوب من ابنه ومن أعزائه، اجتاحت البلاد مجاعة ماحقة من تلك المجاعات التى تتعرض إليها البلاد الشرقية، والتى لا تبقى على الزرع أو النسل. ولم تعف عشيرة يعقوب من متاعب هذه المجاعة، ويبدو أن أبناءه جلسوا فى بلادة وعدم مبالاة بسبب طول مدة المجاعة، ولم يحركهم إلا نداء أبيهم «لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض». وأخيرا نزلوا إلى مصر التى كانت فى كل العصور تمون العالم. ثم رجعوا بعد فترة طويلة عانوا فيها الكثير من الآلام. ولكن شمعون لم يكن معهم. وكان لابد ليعقوب لكى يستعيد شمعون،

ولكى يحصل على كمية أخرى من القمح، أن يخاطر بابن يمينه، الذى كلفه ثمنا غاليا جدا هو موت راحيل. ومن ذا الذى لا يرثى له إذ صرخ تلك الصرخة الأليمة التى مزقت نياط قلبه، والتى تنم عن عمق محبته لابنه بنيامين، إذ قال «أعدمتمونى الأولاد، يوسف مفقود، وشمعون مفقود، وتأخذون بنيامين؟ صار كل هذا على. تنزلون شيبتى بحزن إلى الهاوية».

علاوة على هذا، كان شعوره يزداد يقينا بأن أيامه قد أوشكت على نهايتها، وأن قواه كانت فى دور الانحلال، وأنه يجب أن يستعد ليلحق بأبيه فى العالم غير المنظور. كانت أيامه قليلة بالنسبة لآبائه، وكان ضميره مثقلا على الدوام لأنه «لم يبلغ» إلى أيام سنى حياة آبائه (ص٤٧:٩). إنه من المؤلم جدا أن يرى الشيخ بأن نهاية الحياة تسرع إلى المغيب وهو يرى بأن تأسفاته لا تستطيع أن تصحح أحد أخطاء الماضى، ويدرك بأنه لم يستطع أن يفعل كل ما كان واجبا عليه أن يؤديه. كانت هذه الأحزان من نصيب يعقوب. وهى لا زالت من نصيبنا نحن أيضا. وحينما تكون من نصيبنا فلنتعلم كيف نتصرف فى مثل هذه الظروف.

(١) لا تحكم حسب الظاهر :

قال يعقوب «صار كل هذا على» (أو ضدى). وهذا كان خطأ فاحشا. فقد كان يوسف حيا، وحاكما لمصر، وكان قد أرسل إليها لاستبقاء حياتهم، ولإنعاش روحه فى أيامه الأخيرة. وشمعون كان أيضا حيا، وكان هو الحلقة المباركة التى كانت تلزم الإخوة للعودة إلى ذلك الحاكم المصرى الغريب. وبنيامين كان لابد أن يعود بسلام. فكل الأشياء كانت تعمل معا لخيره، ولم يكن فيها شىء واحد يعمل ضده مطلقا. ولو كان قد وثق فى الله واتكل عليه، لكان قد عاش حتى يرى يقينا أن كل الأشياء كانت تتعاون للعمل لخيره.

فإن كنت أنت فى المسيح كانت كل الأشياء لك. وصارت كل الأشياء لك. وحتى الأمور التى تحسبها فى شدة الالتواء، كثيرة التعب والشقاء، تراها فى الواقع تخدمك فى الصميم أجل الخدمات. ولو أنك عرفت عنها ما يعرفه الله لجثوت على ركبتيك وشكرته شكرا عميقا على أقسى ظروفك وأشقاها. فالبذار المدفون فى الأرض يليق له أن يفرح بالجليد والصقيع كما يفرح بضياء الشمس المشرقة. وحتى أن حلت بنا الأوزار، وداهمتنا المصائب،

فنحن - إن آمنا بأن محبة الله اللانهائية تعمل فينا وبنا - نستطيع أن نتغنى كبولس وسيلا، ولو كانت أرجلنا تضغط عليها المقطرة.

فلنمرن أنفسنا على أن ننظر دواما إلى الناحية المنيرة فى كل شىء. وإن كانت هنالك بعض السحب قد انتشرت فى الجو، فلا تظن أن الجو كله قد تلبد بالغيوم. وإن كان الجو كله قد بسطت عليه السحب أجنحتها إلا جزءا طفيفا فانتفع أنت من هذا الجزء الطفيف. وعلى أى حال، لا تبالغ فى تقدير الظلام.

(٢) ثق بأن الله قصداً فى كل أحزانك:

إن ما يبدو ظاهريا فى بعض أحزاننا من أنها بلا غاية يجعلها شديدة الوطأة جدا على نفوسنا. فنحن نستطيع أن نتحملها بالصبر والسرور. حينما يمكننا رؤية الغاية التى سنصل إليها. ولكن عندما لا نتمكن من ذلك، فلا يكون من السهل أن نصبر إلا بسماح من محبة الله. وعند كل تجربة تأتينا نجد أن تلك المحبة قد سيجت حولنا، ولا تأتينا إلا إن كانت حاملة ترخيصا موسوما بخاتم الله نفسه، لا شىء يحصل بالصدفة، أو بإرادة صديق أو عدو، بل الكل يسير وفق ناموس معين. ولكل محنة غايتها الخاصة. «إن الشونيز[١] لا يدرس بالنورج ولا تدار بكرة العجلة على الكمون، بل بالقضيب يخبط الشونيز والكمون بالعصا» (إش٢٨:٢٧).

وكما أن الفلاح يحكم خططه فى أنواع الحبوب المختلفة إتماما للغاية التى يرمى إليها، هكذا تختلف خطط القدير فى معاملته لنا. فإنه يختار التجربة المناسبة جدا التى تستطيع أن تتمم مقاصده فى أسرع وقت وعلى أتم وجه، ولا يسمح لها بأن تستمر إلا المدة التى تكفى لإتمام كل ما يحتاج إليه الأمر. «يدق القمح لأنه لا يدرسه إلى الأبد فيسوق بكرة عجلته وخيله. لا يستحقه. هذا أيضا خرج من قبل رب الجنود، إلخ» (إش٢٨:٢٨).

إننى أنصح جميع من يظنون أن تجربتهم أعظم من أن تحتمل بالتعلق بهذا الوعد. إنها لن تدوم إلى الأبد، إنها تناسب حاجتنا الخاصة وطاقتنا الخاصة، إنها لابد أن تتمم مقاصد الكرام الأعظم.

---

[١] حبة البركة أو الحبة السوداء.

(٣) اذكر بأنه لا شيء يقدر أن يفصلك عن محبة الله:

عندما تطلع يعقوب، من أعالى فراش الموت الهادئة الرصينة، إلى تلك الكوارث التى مرت عليه، رأى - ما لم يره مطلقا من قبل - رأى أن الله رعاه كل أيام حياته، وأن ملاكه خلصه من كل شر (ص٤٨: ١٥و١٦).

قد لا نرى ذلك وقت التجربة، ولكن لنعلم بأنه لن تحصل لنا تجربة ما لم يلحظنا الله بعين عنايته، ولن يحدث بنا خطر ما لم تتدخل اليد الرحيمة. ولا يمكن إلا أن تكون يد الطبيب الأعظم ممسكة بأيدينا لجس النبض وقت إجراء العملية. «من سيفصلنا عن محبة المسيح، أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عرى أم خطر أم سيف؟» (رو٨: ٣٥). وهذه قد تحجب الله عن أعيننا وتضعف فينا الثقة فى محبته، ولكنها لن تنقص أو تبطل محبته لنا، أو تبعدنا عن نظره، أو تفصلنا عنه. تشجع إذن يا من تنحدر إلى وادى ظل الموت، فإن الراعى الصالح سائر بجوارك وإن كنت لا تراه. عصاه وعكازه يعزيانك، وصوته الحنون يعزيك. لا تخف.

(٤) تطلع إلى غير المنظور:

لا تنظر إلى الأمور التى ترى، بل انظر إلى التى لا ترى. ضع فى إحدى كفتى الميزان أحزانك إن شئت، ولكن ضع فى الكفة الأخرى المجد الذى تنشئه الآلام حالا. اذكر كم يكون الحال معك حسنا متى انتهى التأديب وحصلت على المثال الرائع، وتعلمت الدرس، وثبتت فيك صورة المسيح إلى الأبد. أرقب الوقت الذى فيه يتلاشى كل أثر لطبيعة يعقوب، وتكتسى روحك بطبيعة إسرائيل. ألا يكفيك هذا الجزاء لأنك سوف تتحد بالمسيح فتصبح سماء مصغرة؟

تشجع، فإنك قطعة من خزف السماء لابد أن تصقل على عجلة سريعة، ألوانك الجميلة لابد أن تحترق فى بوتقة التجارب المحرقة، على أنك ستزين مائدة الملوك، وسوف يستخدمك هو فى أسمى مقاصده.

«فإذن الذين يتألمون بحسب مشيئة الله فليستودعوا أنفسهم كما لخالق أمين» (١بط٤: ١٩).



مظاهر الطبيعة الإسرائيلية (تك٤٧)

يستطيع البشر أن يقوموا من موت الخطية
إلى حياة السمو والمجد والحرية

تنيسون

كلما جرى النهر نظف نفسه بنفسه. هكذا كانت حياة يعقوب، فإن المحن التى جازها لم تذهب عبثا، بل كانت كالنار المصفية. وأصبحت أدران طبيعته على وشك الزوال أخيرا، وصارت طبيعة إسرائيل تزداد وضوحا. اقترن هذا التغيير بتغيير اسمه الذى طالما أشار إليه الكتاب المقدس. وأصبح الاسم القديم «يعقوب» لا يستعمل إلا نادرا، وأصبح الاسم الجديد «إسرائيل» هو الغالب عليه كلقب النبل والعظمة.

وقبل أن ندرس آثار زيادة تعمقه فى الأخلاق السامية، يجدر بنا أن نلاحظ بأن الاسم «يعقوب»، ولو لم يستعمل إلا نادرا، إلا أنه لم يغفل إغفالا تاما. فنحن لن ننسى ما كنا عليه بالأمس، ونحن لن ننسى ما قد نصل إليه لولا نعمة الله الحافظة. إننى لا أوافق الذين يظنون أن طبيعة يعقوب يمكن استئصالها كلية من كياننا. وفى اعتقادى أن الكتاب المقدس والاختبار

يؤيدان هذه الحقيقة. فإن «الجسد يشتهى ضد الروح» وسيستمر فى اشتهائه إلى نهاية الحياة ولو بدرجة ضعيفة جدا. ولكن مما يثلج صدورنا أيضا أن «الروح يشتهى ضد الجسد»، ويضعف قوته وحدته تدريجيا حتى يصل إلى آخر حدود الضعف، وبذلك نحفظ من ارتكاب الأمور التى لم يكن ممكنا الامتناع عنها. إن كنا فقط نسلك فى الروح، ونعيش فى الروح، ونقاد بالروح، فإننا لا نتمم شهوات الجسد، ونكاد لا نحس بوجودها فى كياننا، بل نشعر كأننا قد متنا عنها. ولكن فى اللحظة التى نكف فيها عن حياة الاتحاد الكامل بالروح المبارك، فإننا نجد أن الطبيعة القديمة قد انتعشت ثانية، وبعثت من مرقدها بشكل مروع، وانحدرت بنا إلى خطية ما، كتلك الخطية التى عكرت صفاء حياة داود فى أيامه الأخيرة.

قد تتوالد جراثيم المرض باستمرار فى بيت موبوء، ولكن حالما ترش المحاليل المطهرة جيدا على الأرض والأمكنة الملوثة، فإنها تقتل وتتلاشى حال تكونها. هكذا الخطية، ولو كانت جاثمة فى القلب، فإنها تختنق بعمل الروح القدس، وتكاد لا يحس بوجودها، لأن الروح القدس يعمل دواما كمطهر فى القلب. ولكن حالما تبتعد نعمته من القلب فإن الخطية تستعيد قوتها السابقة، وتنفث سمومها القاتلة. إذن، فمن الأهمية القصوى أن نبقى ملتصقين دواما بالروح القدس.

ولزيادة إيضاح المعنى الذى أرمى إليه، أسوق لحضرات القراء تشبيها آخر، ولو عده البعض خارجا عن نطاق البحث. إن المنوم المغناطيسى قد يؤثر على إنسان فتبدو عليه أعراض الموت. لكنه ليس ميتا، فإنه متى فك المنوم تعويذته عادت إلى النائم كل دلائل الحياة. هكذا أيضا الحال مع المؤمن، فإن طبيعته الشريرة تبقى فى القلب كأنها مائتة، وذلك بفعل نعمة الروح القدس، ولا يبقى من مظاهر الحياة فيها إلا القدر الضئيل جدا لدرجة تكاد تكون غير محسوسة. ولكن متى بعدت النعمة من القلب، فإن تلك الطبيعة تنبعث من رقادها، وتعود بشدة إلى قوتها الأولى. إذن، فيليق بنا أن نسهر ونصلى لئلا ندخل فى تجربة.

هنالك تجربة جميلة يستطيع قراء هذه السطور أن يجربوها لأنفسهم، فتعطيهم فكرة واضحة كيف أن ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع يستطيع أن يحررهم من ناموس الخطية والموت. إذا أخذت كتابا ثقيلا، وحملته على ذراعك وهى مبسوطة، فإن قانون الجاذبية

يجذب ذراعك إلى أسفل. ولكن إذا مرر أحد أصدقائك تيارا كهربائيا مستمرا على ذراعك هذه فإن التيار الكهربائى يحررك من ناموس الجاذبية. إن ناموس الجاذبية موجود ولكنك لا تشعر به. هذا ما يحصل عندما تمتلىء من روح الله. فإن ناموس التسفل الذى يحاول أن ينحدر بنا إلى أسفل قد يكون لا يزال فينا، ولكن عمله يتعطل فينا بسبب تلك الحياة الجديدة وعمل المسيح فى قلوبنا بنعمة الروح القدس.

قد يكون الاتصال المستمر بروح الله القدوس أمرا متعذرا فى بدء الحياة المسيحية. ومما نلاحظه أن بعض المؤمنين يصلون إلى حياة الشركة أسرع من غيرهم، وبحالة أكثر ثباتا من غيرهم. فى مثل هذه الحالات تبدأ طبيعة يعقوب أن تتوارى بسرعة. أما الذين يصلون إلى حياة الشركة المستمرة فإن طبيعة يعقوب تبقى فيهم تصارع طبيعة إسرائيل بعنف. ولكن كلما تقدم العهد وكلما تأصلوا فى حياة الشركة، تقل تدريجيا تلك العثرات التى تقطع شركتهم حتى تكاد تصبح نادرة. وأخيرا تصبح طبيعة إسرائيل هى السائدة طوال الحياة.

والآن، لنلاحظ بعض مظاهر تلك الطبيعة الإسرائيلية تظهر فى حياة يعقوب كشروق الشمس إذ تغالب الضباب الكثيف فى الصباح المبكر حتى تنتصر عليه، وتبدو أخيرا فى صحوها وفى مجدها.

ظل يعقوب أكثر من عشرين عاما يحزن على ابنه يوسف على أساس أنه مات. لم يقطع حبل الصمت فى تلك السنوات الطوال إلا المصائب التى كانت تأتيه الواحدة عقب الأخرى، كما كان رسل السوء يدخلون على أيوب الواحد تلو الآخر. نحن إذ نسمع التنهدات العميقة صاعدة من ذلك القلب الكسير، فإنها تذكرنا بتلك التنهدات التى انبعثت من قلب المصلوب وسط ظلمة الصليب. ففى بادىء الأمر إذ رأى القميص ملوثا بالدماء قال «إنى أنزل إلى ابنى نائحا إلى الهاوية». وعندما سمع الأخبار الأولى عن قسوة وغلظة ذلك الحاكم الفظ سيد الأرض قال «أعدمتمونى الأولاد». وعند توسل أبنائه إليه ليرسل معهم بنيامين قال «لا يزال ابنى معكم .. تنزلون شيبتى بحزن إلى الهاوية». وعندما كرروا التوسل قال «لماذا أسأتم إلى حتى أخبرتم الرجل أن لكم أخا أيضا». وعند موافقته النهائية قال لهم بحزن ويأس، بعد

أن أمرهم أن يأخذوا من أفخر جنى الأرض فى أوعيتهم «الله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين، وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم».

على أن ليل البكاء والنحيب أعقبه نهار الفرح والغبطة والسرور. تطلع البِشْر والفرح من الكوة، أما الحزن والتنهد والكآبة فقد ولت هاربة. كيف كان ذلك القلب يرقص طربا عندما مثل بين يديه أبناؤه كاملين بتلك الأخبار العجيبة. لقد عاد بنيامين وعاد أيضا شمعون. لقد ارتبطت قلوبهم بالمحبة برابطة لا تنفصم عراها بعد أن خرجوا من كور المشقة، وبوتقة الآلام كالتحام السلسلة ذات الاثنتى عشر حلقة، التى لن تفقد منها حلقة واحدة. لقد التقى بهم إله آبائهم، ومن ذلك الحين وهو يسد كل أعوازهم كاملة فلا يعوزهم شىء، ولو استمرت المجاعة ثلاث سبعات من السنين.

وفوق كل شىء، إن يوسف حى، وهو سيد كل أرض مصر. وهل من عجب إذا جمد قلب ذلك الشيخ العجوز المحطم فى داخله بسبب ذلك الخبر المفاجىء؟ فى بادىء الأمر لم يصدق الخبر. ولكن منظر العربات أقنعه. وعندئذ بدت منه شعاعة من روح الإيمان القوى «فعاشت روح يعقوب، فقال إسرائيل: كفى يوسف ابنى حى بعد. أذهب وأراه قبل أن أموت».

وقبل أن يغادر كنعان، كان له حديث نهائى مع صديقه الأبدى القدير. تم هذا الحديث فى بئر سبع، وهو آخر نقطة فى المراعى الخضراء فى أرض الموعد، قبل أن يسير فى الفيافى والصحراء والقفار المنبسطة إلى حدود مصر. كل شىء هنالك ذكره بأيامه الأولى التى قضاها فى ذلك المكان. فإنه يستطيع أن يجد آثار مذبح أبيه، والبئر التى حفرها أبوه «فذبح ذبائح لإله أبيه اسحق». فى ذلك الوقت، كان عقله منشغلا جدا فى الطريق الذى يسلكه. فمن الناحية الواحدة كانت محبته لابنه يوسف، وحاجته إلى القمح، تدفعانه للذهاب إلى مصر، ومن الناحية الأخرى، كانت الذكريات القديمة التى يعلمها عن مقدار الشر العظيم الذى حل بآبائه فى كل مرة ذهبوا فيها إلى مصر، تجعله يتساءل عما إذا كان محقًا فى النزول إليها.

وعندئذ أوضح له الرب طريقه، إذ قال له «لا تخف من النزول إلى مصر لأنى أجعلك أمة عظيمة هناك، أنا أنزل معك إلى مصر، ويضع يوسف يده على عينيك».

يا للتعزيات التى يتحدث بها الرب إلينا عندما نقع فى حيرة وارتباك. إن كنا ننتظر، فلابد من سماع الصوت خلفنا قائلا «هذا هو الطريق اسلكه»، ولكن طالما كان الصوت يتحدث إلينا من خلفنا، فيجب إن لا نسرع فى المسير إلى الأمام.

(١) هنالك مظهر لطبيعة إسرائيل فى التقائه بيوسف. فإنه عندما وصل إلى حدود مصر، وعلم أن المركبة الملكية تقل ابنه المتغيب عنه منذ سنوات طويلة، نهض لمقابلته، ليس بطبيعة يعقوب القديمة، بل كإسرائيل الأمير «فقال إسرائيل ليوسف أموت الآن بعد ما رأيت وجهك أنك حى بعد» (تك٤٦: ٣٠).

(٢) وهنالك مظهر آخر لطبيعة إسرائيل فى بركته لفرعون. كان من اليسير أن يخجل يوسف من أبيه الشيخ ويتركه فى مؤخرة الشعب. فقد كان شيخا متقدما فى الأيام، منحل القوى، أعرج. وكان قد صرف كل أيام حياته فى معيشة الخيام ورعاية الغنم. وليست له دراية على الإطلاق بآداب الملوك أو مطالب السرايات الملكية. كان مقصى من بلاده، مهاجرا، مر النفس بسبب ظروفه القاسية. كان وجوده فى مصر متسببا من خسائرة الجمة. ويا له من فرق شاسع بينه وبين فرعون العظيم الذى اكتظ قصره بالعلماء والفلاسفة، بالجنود والكهنة، بالثروة والمجد. ومع ذلك، فإنه لما وقف أمام فرعون، كانت تحيط به هالة من المجد الأدبى، حتى اضطر أعظم ملك فى العالم أن ينحنى أمامه لينال البركة. «كم هى أيام سنى حياتك» كان هذا هو السؤال الذى تلطف به ذلك الملك العظيم الذى كان يشيد هرما فخما يخلد ذكراه. ولعل الباعث على هذا السؤال كانت هيئته التى رآها فرعون، إذ شاهد بأن ظهره قد انحنى، ونظره قد كل. أما الجواب فكان أليما جدا، وكانت «طبيعة يعقوب» هى التى نطقت به. وكان هذا الجواب يبدو كأنه يمثل مقدما تلك الصرخة التى انبعث من الجامعة بعده بمئات السنين «باطل الأباطيل الكل باطل». ونحن لا نستطيع أن نرى فيه ولو شعاعة واحدة من الشكر أو الإيمان أو الرجاء «أيام سنى غربتى.. قليلة ورَدية كانت أيام سنى حياتى».

«قليلة» بالنسبة إلى حياة تارح وإبراهيم وإسحق. «ردية» بالنسبة إلى حياة عيسو الذى ترأس مملكة عظيمة، والذى كان أبا لملوك كثيرين. ورغم هذا الاعتراف الذى رن فى أذنى

فرعون، فإنه قبل البركة من يدى يعقوب الممدودتين المرتعشتين وصوته الخافت. لم يكن ممكنا لعيسو أن يفعل هذا على الإطلاق.

«بدون كل مشاجرة الأصغر يبارك من الأكبر» (عب٧:٧). إذن فلابد أن يكون فى يعقوب ما عظمه عن أعظم ملوك العالم. كان فى تلك الغرفة الملكية المزينة بالنقوش المصرية الساحرة والكتابات الهيروغليفية ملكان، الواحد كان ملكا بما اكتسبه من مميزات الملك التى آلت إليه بالميراث، والثانى طبعه الله بطابع ملكى هو الأخلاق النبيلة، ولو كان شخصا غريبا مهاجرا أضناه التعب من طول السفر. وإذ وقفا جنبا إلى جنب، بدا لكل العالم أن الروحى أعظم وأسمى من المادى، وأن الله يستطيع أن يمنح النفس البشرية عظمة أدبية تلزم أعظم العظماء الذين أخضعوا العالم لسلطانهم أن يعترفوا بالخضوع أمام سلطانها. قد تكون ماكرا مخادعا محبا للمادة وضيعاً فى أخلاقك، ولكنك إن سلمت نفسك لله، وأخضعت ذاتك لتأديب محبته، ألبسك تاج الملك ومنحك سلطانا أدبيا يخضع أمامه كل سلطان.

(٣) وهنالك مظهر آخر لطبيعة إسرائيل فى وصيته الخطيرة ليوسف عن دفنه. «ولما قربت أيام إسرائيل أن يموت دعا ابنه يوسف وقال له..» (تك٤٧:٢٩). «فسجد إسرائيل على رأس السرير» (ع٣١). إن ساعة الموت هى التى تظهر طبيعة الإنسان. ولقد أطلقت ظلمة هذه الساعة، طبيعة يعقوب الصالحة من عقالها.

واضح إنه كان رجل إيمان. فهو كان متيقنا من وعد الله العظيم الذى ربما يكون قد حدثه عنه إبراهيم مرارا فى فجر حياته، المتضمن بأن نسله لابد أن يرث أرض كنعان. لهذا كان واثقا من أن شعبه سوف لا يبقى إلى الأبد فى أرض مصر مهما أخصبت أرض جوسان، أو مهما حسنت معاملة المصريين له. إذن، فلابد أن يأتى يوم الرحيل. وإذا دفن فى مصر ترك فيها غريبا وسط الغرباء، وهذا ما لا يقبله قط، لأنه يجب أن يدفن حيث دفن شعبه. لذلك كان فى اعتقاده أن دفنه فى أفخم الأضرحة المصرية، لا يقاس بالمرة بدفنه فى مغارة المكفيلة المتواضعة التى كانت حينئذاك مجرد مغارة حقيرة فى أرض سحيقة. لم يرغب فى أن يدفن هناك، لأن فيها عظام إبراهيم وسارة، واسحق

ورفقة، وليئة فحسب، بل لأنه تطلع من بعيد فرأى الوقت الذى سوف يكتظ فيه المكان بربوات من نسله.

لم يكن ممكنا أن يرى ذلك إلا الإيمان. إنه «لم ينل المواعيد بل من بعيد نظرها بالإيمان وصدقها وحياها». وبالإيمان استطاع أن يقول «ها أنا أموت ولكن الله سيكون معكم ويردكم إلى أرض آبائكم... لا تدفنى فى مصر، بل أضطجع مع آبائى، فتحملنى من مصر وتدفننى فى مقبرتهم». ألم يكن «إسرائيل» هو الذى نطق بهذه الكلمات؟ لقد ألبسه الإيمان تاج الملك، كما يفعل بأغلظ الطباع وأشر الخطاة «ويرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء». وهذه الكلمات الرائعة التى نطق بها تبرهن على مقدار السمو الذى رفعه الله إليه، كما تبرهن على أن روح ذلك البطل الراقد كانت روحا ملكية.

(٤) وهنالك مظهر آخر لطبيعة إسرائيل فى تصرفه مع ابنى يوسف. فى الإصحاح الذى يصف هذا المنظر يحاول الكاتب أن يوجه كل أنظارنا إلى «إسرائيل». فتشدد إسرائيل وجلس على السرير (ص٤٨:٢) «ورأى إسرائيل ابنى يوسف» (ع٨)، «وقال إسرائيل ليوسف» (ع١١)، «فمد إسرائيل يمينه» (ع١٤). وقال إسرائيل ليوسف (ع٢١).

عندما وصل إليه ابنه يوسف كان جسمه قد وهنت كل قواه، وتمدد على السرير كجثة هامدة. ولكن صوت ذلك الاسم المحبوب «يوسف» أنعش نفسه، فجلس على سريره مستندا إلى وسادة أو اثنتين.

بعد ذلك ابتدأ يستعيد الماضى بذاكرة حادة جدا. فإن رؤية ذلك السلم العجيب بجيوش الملائكة عليه، وكلمات الوعد الثمينة التى لم تستطع أن تمحوها من ذاكرته مئة من السنين، ومنظر طريق بيت لحم حيث دفن راحيل، وعلامات عناية الله المتوالية التى حرسته، كما يحرس الراعى قطيعه، كل أيام حياته حتى ذلك اليوم - كل هذه الذكريات تمثلت أمام عينيه اللتين ولو كَلَّ نظرهما بسبب الشيخوخة، فقد كانتا مستنيرتين بالذكريات والآمال.

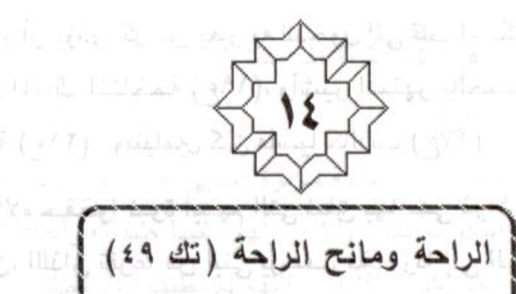
وسط هذه التأملات والذكريات، أحس ذلك الشيخ بوجود ابنى يوسف وسأل من هما. ولما عرفهما، طلب أن يقتربا منه ليمنحهما بركته. لقد فعل هذا إذ كان قلبه يتدفق محبة. قبلهما واحتضنهما وتوسل أن يباركهما الملاك الصالح الذى خلصه من كل شر. ثم عدهما ضمن أولاده. وبروح النبوة ميز بينهما إذ صلب يديه، ووضع يمينه على رأس الأصغر الذى كان قد وضعه يوسف على يساره، ووضع يساره على الأكبر الذى كان يوسف قد وضعه على يمينه. وعندما احتج يوسف على هذا ظنا منه أنه ربما يكون قد أخطأ التصرف بسبب شيخوخته وفقد بصره، أصر يعقوب على تصرفه كشخص واثق من عمله الذى يجب أن لا يتدخل فيه إنسان ولا يوسف نفسه.

انتهى هذا الحديث الشجي بمنح يوسف قطعة الأرض التى أخذها من الأموريين بسيفه وقوسه فى شكيم. كانت قطعة الأرض هذه قد عادت إلى أصحابها الأصليين منذ زمن طويل، ولكنه تطلع إلى صفحة المستقبل فرأى أن كل الأرض ستعود إليه وإلى نسله، ثم تحدث عن هذا المستقبل بالإيمان.

هذا المنظر كله ملىء بالعظمة والسمو الأدبى، ويليق بإسرائيل الأمير.

يعوزنا الوقت لو تحدثنا عن مظاهر العظمة التى تجلت فى ختام هذا المنظر. ولذا نترك التأمل فيها للفصل التالى. ولكننا نكتفى بالإشارة فى ختام هذا الفصل. إنها واضحة كل الوضوح. لقد التف حوله اثنا عشر رجلا أشداء، وكان هو فى أقصى حالات الإعياء والوهن، ولكنه لم يخش بأسهم كما فى الأيام القديمة. إن كان وجهه قد غطاه ظلام الموت، فإن عينيه قد استنارتا بروح النبوة، إذ نراه يدعوهم بأسمائهم واحدا فواحدا. ويوقفهم موقف المحاكمة، ويستعيد ماضيهم، ويعطى لكل واحد نصيبه من الثناء أو اللوم، ثم يحدد له مستقبله «هؤلاء هم أسباط إسرائيل الاثنا عشر، وهذا ما كلمهم به أبوهم» (ص٤٩:٢٨).

لا داعى للإفاضة فى تفاصيل أخرى، لأن ما قدمناه يكفى لإقناع أبسط العقول بذلك الجلال الملكى الذى تجلى فى هذا الشيخ. ونحن على يقين من أن هذا هو نفس ما سيعمله الله معنا بواسطة ذلك الذى أحبنا، والذى بموته جعلنا ملوكا لله، والذى سنملك معه يوما ما.



١٤

الراحة ومانح الراحة (تك ٤٩)

غـردت فـراخ العـصافـيـر شـرقـا ثم غـردت غـربا
وقلت فى حـيـرتى كل حـيـاتنـا مـخـتـلـطة بالموت
ومن يـدرى مـا هـو الخـيـر لبنى البـشـر
غـردت فـراخ العـصافـيـر شـرقـا ثم غـردت غـربا
وابتـسـمـت لأرى صـلاح الله يـحـيط بضـعـفنا
وأنه هـو راحـتـنا وسـط كل مـتـاعـبنا

مدام ا . ب . براونـنج

فى هذه الكلمات التى نطق بها يعقوب عند موته نرى عذوبة خاصة، وفيها تلمع طبيعة إسرائيل الأمير بطلاوة ممتازة. ونحن إذ نمر عليها لا نستطيع إلا أن نلمسها كما تلمس طيور البحر الأمواج.

فإننا مثلا نرى عذوبة خاصة، إذ نلاحظ دقتها المتناهية. لأن رأوبين، ولو كان البكر، إلا أنه «لم يتفضل»، ولم يسم على سائر إخوته (ع٤)، ولم يخرج من سبطه قاضى ولا نبى ولا وال. وشمعون كان مندمجا على الدوام فى القبائل الرحالة فى جنوب فلسطين. أما المدن التى سكنها لاوى فكانت مبعثرة فى كل الأسباط (ع٥-٧). ولا تزال آثار الكروم تشهد على أن المنطقة الجبلية التى خصصت ليهوذا تناسب زراعة الكروم (ع١١و١٢)، وزبولون احتضن بحيرة الجليل وامتد حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط (ع١٣)، وسهل اسدرايلون – وهو ساحة الحرب فى فلسطين – الذى تتاخمه أشور من الشمال ومصر من الجنوب، اللتين طالما اشتبكتا معا فى حروب طاحنة، يقع فى نصيب يساكر. وإن كان صغيرا كالأفعوان، ولكنه

كان مثله يستطيع أن يؤذى كل من يعبر به للدخول إلى قلب المملكة (ع١٧). وجاد طالما شنت عليه الغارات من الممالك المتاخمة (ع١٩)، وأشير اشتهر بالخصب والنماء (ع٢٠). ونفتالى اشتهر بالفصاحة (ع٢١). وبنيامين كان قاسيا كالذئب (ع٢٧).

جميع هؤلاء حققوا نبوة أبيهم التى نطق بها على فراش الموت. أما سبطا أفرايم ومنسى العظيمان، اللذان تفرعا من ابنى يوسف، فقد ورثا إلى التمام «بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت، بركات الثديين والرحم، بركات.. إلى منية الآكام الدهرية» (ع٢٥و٢٦).

ونجد عذوبة أيضا إذ نلاحظ جمال هذه الكلمات. فإن فيها تكثر الإشارات إلى طبيعة الحيوانات، الأمر الذى يدل على عادات الراعى التى كان يعقوب قد خبرها منذ فجر حياته. فيها يتحدث عن جرو الأسد الرابض فى عرينه، الذى يرفض النهوض لوفرة الطعام لديه (ع٩). وعن الجحش وابن الأتان يرعيان بين ثمار الكروم قبل نضوجها (ع١١)، وعن الحية التى تكمن فى الرمال وتثب إذ يمر عليها الفرس لكى تلسعه بسمها القاتل (ع١١). وعن الذئب بمشيته المختالة باحثا عن فريسته ليلا (ع٢٧). وعن الأيّلة الخفيفة الرشيقة (ع٢١).

ثم يتحدث عن الكروم المحملة بالعنب الذى يلوث ملابس الفلاحين بعصيره الأحمر كالدم إذ يدوسونه فى المعاصر. وعن الغصون وهى تمتد على سياج الكروم محملة بالثمار الشهية التى تنعش كل مجهد يمر بها. وعن المياه الفائرة من العين. وعن ساحل البحر البعيد. وعن زرقة تخوم الآكام الدهرية وهى ترى من بعيد. كل هذه تدل على أن تلك النفس أحبت جمال الطبيعة.

ثم إننا نجد عذوبة أيضا إذ نلاحظ العلاقة الوثيقة بين الجزاء وأخلاق أولئك البنين الذين التفوا حول سرير موت أبيهم، الذى كان جسده منطرحا كجثة هامدة، أما روحه فكانت تشتعل بمجد روح النبوة، الذى لا يستطيع جسده الضعيف احتماله. خذ مثلا حالة رأوبين (ع٣و٤). إنه كان قد ارتكب منذ سنوات طويلة خطيه شنيعة ذكرها أيضا قبيح. ولعله كان يرجو أن تكون قد نسيت منذ زمن مديد. لكن، كلا، فإنها هنا تعود إلى الظهور إذ تسلط عليها أشعة النور الذى لا مفر منه، كما يفعل بخطايانا ما لم تخبأ تحت دم المسيح. هذه الخطية، الخطية الواحدة، حرمته من الرئاسة. هل كان هنالك شىء من التعسف فى ذلك الحكم؟ كلا، فإن تلك الخطية برهنت على أخلاقه، وبينت يقينا عدم ثبات طبيعته، لأن الانغماس فى الشهوات

الجسدية معناه عدم الثبات، فى الله، فكما أنه يشل أعصاب الجسم كذلك يشل قوة الروح، وينتزع منها قوة الإرادة والعزيمة.

ثم أن خطية رأوبين كانت لها نتيجة مريرة أخرى، فإنه لم يسبب لنسله خسارة حق الرياسة وخسارة امتيازات البكورية فقط، ولكنه ورثهم أيضا صفاته وأخلاقه. فإنهم على عتبة أرض كنعان طلبوا امتلاك أرض شرق الأردن، لأنهم لم يطيقوا الانتظار، وأظهروا كل صفات الرجل الذى ينساق وراء شهواته، الذى يفضل الحاضر على المستقبل، والمنظور على غير المنظور. وفى أغنية دبورة، نراها تترحم على قوة هذا السبط الحربية التى خسرها.

ولكن وسط هذه الأخلاق المتباينة والصفات والأحوال والممتلكات المتعددة، يبرز فى هذه الكلمات إعلان عن شخصية عجيبة سامية جدا تفوق الوصف والإدراك، تتعالى عن سائر الشخصيات. أمام هذه الشخصية ينحنى ذلك الشيخ المتهدم، فيستنير وجهه الذابل بنور ليس من الأرض بل من السماء. ماذا كان يعنى بتلك الكلمات الرمزية التى وصف بها «شيلوه» أو شيلون، ومجيئه، وخضوع الشعوب له، والتفافهم حوله؟ إن فى هذه الكلمات قوة تحرك أرواحنا. ونحن نشعر بأننا وجها لوجه أمام ذاك الذى تسجد له الملائكة مغطية وجوهها بأجنحتها، ولا زالت الكلمات ترن فى قلوبنا «لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون[١] وله يكون خضوع شعوب[٢] (ع١٠).

(١) لنحاول فهم هذه الكلمات:

إن رياسة إسرائيل، إذ خسرها رأوبين، انتقلت إلى يهوذا. والقضيب يشير بلا شك إلى السلطة التشريعية التى تكنى عنها لفظة «مشترع». ومعنى الآية هو أن يهوذا يحتفظ بالرياسة على كل الأسباط، ولا يعدم وجود سلطة حاكمة وحاكم، حتى يأتى ذاك الذى يسميه يعقوب «شيلون».

ومن هو شيلون هذا؟ يحدثنا أحدث مفسرى اليهود أنه هو الغنى فى السلام، مانح الراحة، رجل الراحة. ومن هو الذى يصدق عليه هذا القول إلا واحد؟ وسط الرذائل والقبائح التى انتشرت لدرجة ذريعة قبل الطوفان، ولد طفل وسماه أبواه «نوح» أى «راحة». وكانا يرجوان أنه سوف يريحهما ويريح البشرية ويعزيها. ولكن هذه الآمال خابت مع الأسف. فإن

---

[١] معناها راحة أو واهب الراحة.

[٢] ترجمت أيضا «وحوله تجتمع الشعوب».

مياه الطوفان كان لابد أن تكتسح بيتهما. لا يستطيع إنسان أن يهبنا الراحة. لأن الذى يعطى الراحة للعالم المتعب يجب أن يكون أكثر من إنسان، ويجب أن يسمو على كل تلك التغييرات التى يخضع لها البشر. فشيلون الحقيقى لا يمكن إلا أن يكون ابن الله، الذى، إذ وقف وسط العالم المضطرب، استطاع أن يقول «تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم».

فكرت مرارا فى المصدر الذى تعلم منه يعقوب هذه التسمية الصادقة العذبة للرب يسوع المسيح. هل أشرقت فى قلبه فجأة فى تلك اللحظة لأول مرة؟ هذا جائز. ولكن هنالك احتمال آخر طالما تلذذت بالتفكير فيه. ولعلك تذكر أن يعقوب إذ كان فى فنيئيل سأل مصارعه عن اسمه. ترى ما هى الإجابة التى تلقاها؟

عندما سأل منوح سؤالا مشابها، أجابه ملاك الرب: إنه عجيب وسر من الأسرار. أما يعقوب فلم يتلق إجابة سلبية كهذه. وكل ما فى الأمر أن الملاك قال «لماذا تسأل عن اسمى. وباركه هنالك». لقد خطر ببالى مرارا أنه إذ باركه، همس فى أذنه بهذه التسمية المحبوبة التى بقيت فى ذهنه على مر السنين، وصارت فى كل يوم تزداد رواء وقوة وجلاء كلما شعر بحاجته إلى ما تتضمنه من قوة وعزاء.

لقد وعد المسيح بأن من يغلب يعطيه «حصاة بيضاء وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذى يأخذ» (رؤ٢:١٧). فلماذا لا يكون قد تم نفس هذا الأمر مع ذلك البطل العظيم، الذى غلب فى جهاده، والذى ظل يقاوم حتى انخلع حق فخذه؟ كان طبيعيا أن يعلمه الله سر الراحة وقت جهاده وتسليمه الكامل.

هذا هو النظام العام فى الحياة المسيحية: أولا المقاومة، ثم الفخذ المخلوع، ثم التسليم الكامل والتعلق بالله، وأخيرا الراحة.

إذن فقد كان يعقوب واثقا من أن مانح الراحة سيأتى أخيرا، وأنه متى أتى اجتمعت حوله الشعوب، لا يساقون كالبهائم، بل يجتمعون كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، أو كما يجذب المغناطيس برادة الحديد إليه.

(٢) ولنلاحظ أيضا إتمامها حرفيا:

ظل يهوذا أجيالا طويلة محتفظا بالمركز الذى عينه له ذلك الزعيم وهو على فراش

الموت. وأسد سبط يهوذا لم يزاحمه منافس. كانت أورشليم فى نصيبه. وداود قام من بين بنيه. وفى كل سنى السبى الطويلة ظل الولاة محتفظين بحقهم. لأننا نرى أنه عندما أطلق كورش النداء الذى منحهم الحرية «قام رؤوس آباء يهوذا .. وعدها لشيشبصّر رئيس يهوذا» (عز١:٥ر٨)، ومملكة يهوذا هى التى عادت من السبى، فأطلق الاسم «يهود» على كل الشعب.

وحتى إلى وقت مخلصنا، كان فى المجلس الذى حوكم أمامه آثار للحكم السالف.

ولكن ذلك الامتياز عتق وشاخ وظهرت عليه علامات الاضمحلال. فإننا نقرأ مثلا أن هيرودس الأدومى عندما جلس على العرش استولى الذعر على كل اليهود المتحمسين لوطنهم، ومزقوا ثيابهم، ووضعوا التراب على رؤوسهم. وساروا فى الطرقات باكين وصارخين «ويل لنا، لأن القضيب زال من يهوذا والمشترع من بين رجليه»، وظلت المحاكم الصغرى والكبرى بعض الوقت حتى ظهر ذلك الانفجار العظيم فى الحكومة اليهودية، الذى لم يبق يهوديا واحدا فى بيت لحم ولا فى الدائرة التى تحيط بها بخمسين ميلا، وبذلك أصبح الأمر مستحيلا أن يخرج «شيلون» من يهوذا.

وقبل زوال نظام الحكم اليهودى نهائيا، أتى «شيلون». فإنهم إذ كانوا ينتظرونه من الباب الأمامى، انسل ودخل من الخلفى. وإذ كانوا ينتظرونه بمظهر خارجى عظيم، أتى كما يأتى الربيع وكما ينبثق الفجر. أتى حاملا الراحة. من أجل هذا رأيناه هادئا وسط غوغاء الناصرة وعواصف بحيرة الجليل والدهماء فى جثسيمانى. وأتى ووهب الراحة، الراحة من تعب السنوات الطويلة الغابرة، الراحة من الدموع ووجع القلب، الراحة من الخطية.

وكما نادى فى كل الأجيال الماضية، لا يزال صوته الهادئ الخفيف ينادى وسط متاعب البشرية وآلامها قائلا «تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم». ولا يزال الكثيرون يخرجون إليه، وينجذبون نحوه كما فعل العشارون والخطاة فى القديم، ويتجمعون حوله كما فعل المظلومون فى مملكة شاول قديما إذ تجمعوا حول داود فى مغارة عدلام، وبذلك كونوا جيشا عظيما كان لابد له أن يرث كل شىء إذ تم له الانتصار. «شعبك منتدب فى يوم قوتك» (مز١١٠:٣).

(٣) ولنتحقق صدقها:

ما أكثر النفوس المتعبة التى ستقرأ هذه الكلمات. عيون متعبة، رؤوس متعبة، أجسام أضناها التعب، قلوب مثقلة بالهم والألم. نفوس متعبة من الاستمرار فى عمل يكاد يكفى

لإعالة الأطفال الصغار، متعبة من انتظار شخص لن يجيء، متعبة من حمل الآلام التى لا تنقطع، متعبة من مضايقات أهل العالم المستمرة فى الازدياد بلا رحمة ولا شفقة، متعبة من الجهاد ضد الشر المحيط بها، متعبة من الجهاد ضد نفسها والخطية الداخلية، متعبة من الحياة.

ربى إننى طالما تعبت من نفسى ومن خطيتى
ومن أباطيل الحياة المحيطة بى
ولكن لا تسمح بأن تتعب منى
وإلا هلكت لا محالة

ليت جميع التعابى يدركون أن يسوع المسيح، الشيلون الحقيقى، يستطيع أن يمنحهم راحة الآن وإلى الأبد «تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم».

هذه كلمات ملكية. ولو أن هذه كانت مجرد بقايا ما فاه به الرب من أقوال ملكية لحق لنا أن نعتقد بأنه وطىء على الأرض. إنه يعرف تماما ماذا يحتاجه البشر، وهو يدرك أن لديه المفتاح، وأنه هو ينبوع الراحة الذى لا ينضب، يا لعظم اتساع قلبه الذى يستطيع أن يملأ كل فراغ فى النفوس البشرية، كما يملأ المحيط الهادىء، ذلك المحيط الساكن العديم الزوابع، عشرات الألوف من الخلجان وغيرها فى كل قارة.

هذه كلمات مركزة تحمل حقيقة يقينية، لا مجال للشك أو التساؤل ولا خوف من فشل، لا تلعثم فى ذلك الصوت الواضح، ولا تردد فى ذلك القول الفصل، فلنثق فيه أيها الإخوة والأخوات. فإنه على الأقل يعرف ناموس الموازنة. وهو يتكلم بما يعرفه. وهو يملك الراحة التى يعد بها. فضع نفسك فى يده. وهو لا يستغرق وقتا فى منحك الراحة أكثر من الوقت الذى قضاه فى تسكين الريح والأمواج. لأنه لم تكد تخرج الكلمة من فمه حتى صار هدوء عظيم.

إن الراحة التى يمنحها شيلوه ليست فى السماء. فنحن لا نحتاج إلى أجنحة الحمامة لكى نطير إليها. ونحن لن نجدها هناك إن لم نجدها هنا أولا: «لأننا نحن المؤمنين ندخل الراحة» (عب٤:٣). هذه الراحة باقية كما هى، لم تنفد بعد كل الذين اغترفوا منها ممن سبقونا. وهى تنتظرنا بوفرة لا حد لها.

وهذه الراحة التى يمنحها شيلون ليست فى الظروف. هذه الفكرة لا توجد إلا فى

تعاليم الأبيكوريين والرواقيين وفلاسفة العالم. فإن الظروف لن تأتى إلينا بالراحة، كما أن تغيير وضع الجسم المشدود على المقصلة لن يأتى إليه بالراحة. وهنا نجد علما أدق وأصفى: إن الراحة داخلية - داخل القلب - بينما تعصف الزوابع والاضطرابات والمشاكل والتجارب وتملأ العالم. كما تبقى أعماق المحيطات فى هدوء كامل بينما تكتسح الزوابع سطحها، وكما توجد نقطة هدوء فى أشد الزوابع التى تهب فى الصحراء.

وهذه الراحة التى يمنحها شيلون ليست فى التوانى والكسل والجمود. إنه لا يدعونا إلى شاطىء الورود، ولا إلى السهول البهيجة النضرة، ولا إلى المتنزهات والحدائق الغناء. وحتى فى السماء، تجد القديسين لا يستريحون مع أنهم يستريحون. فإنهم يستريحون فى عبادتهم المباركة. هم يعبدون دون أن تعطل العبادة راحتهم. وهم يبذلون أقصى ما فيهم من قوة، ولكن لا إجهاد ولا إنهاك ولا شعور بالتعب. وهكذا تكون الراحة التى يمنحها. ألا ترى بأنه يتحدث عن «الحمل» وعن «النير» فى نفس اللحظة التى يتحدث فيها عن الراحه.

وهذه الراحة ليست صعبة المنال. تأمل! إنه يمنحها. وهل يحتاج الأمر إلى مجهود لكى تتقبل منحة؟ إنه يعلمنا أين نجدها، ومن السهل جدا أن نجد شيئا إن كنا نعلم أين يوجد. ويبدو لى أنه لا توجد سوى ثلاثة شروط يجب أن تتم:

(١) سلم له كل شىء:

طالما كنت تحاول أن تمسك ذلك «القضيب» بنفسك، أو تجعل إرادتك هى «المشترع» لحياتك، فإن شيلون لا يمكن أن يأتى إليك. فيجب أن تكف عن بذل أى مجهود شخصى لتخليص نفسك بنفسك، يجب أن تكف عن آرائك الشخصية لكى تصطلح مع الله، يجب أن يكون هنالك مجال لاختبارك الشخصى، لطريقتك، لإرادتك الشخصية. يجب أن تكف بتاتا عن عمل أى شىء كما استراح الله يوم السبت. سلم له نفسك الخاطئة لكى يخلصها. سلم له مفتاح كل غرفة فى قلبك. اقبله لكى يملك على كل ناحية فى حياتك، اترك قلبك مكشوفا وعريانا أمامه. بذلك فقط تستطيع أن تجد الراحة. وإن كنت لا تستطيع أن تتمم ذلك، فاطلب منه أن يتممه نيابة عنك. يجب أن تخضع إرادتك لإرادته. إنه سوف لا يهدأ ولا ييأس حتى يخضع كل سلطان وكل قوة، ويجعل نفسه ملكا على القلب والحياة.

(٢) ثق فيه بتسليم كل شىء له:

سلم له كل خطاياك وكل أحزانك. إنه «يرفع خطية العالم». لا تنتظر حتى تتراكم

الخطايا وتتجمع فى سحابة كثيفة أو جبل شامخ. لا تنتظر حتى يحين موعد الصلاة المسائية. لا تتأخر حتى تصير منفردا. ولكن حالما تشعر بأى ثقل قدمه إلى يسوع توا. إلق عليه كل همك، لأنه يعتنى بك. عيناه حادتان جدا تنظران كل مجهود تبذله نحو الإيمان، وقلبه متسع جدا لحمل كل هموم ومتاعب العالم. حالما تعطى هو يأخذ، وكل ما يأخذه يتعهده ويقومه، لكى يؤول ذلك إلى سعادتك، وإلى مجده. هذه هى راحة الإيمان المباركة، هذه هى أرض الموعد، التى ينتظر يسوعنا أن يدخل إليها كل من يتكلمون عليه ويثقون فيه.

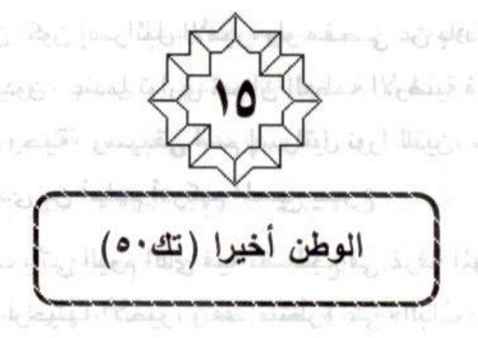
(٣) احمل نيره وتعلم منه :

أى أفعل كما فعل هو. وماذا فعل هو؟ وماذا كان نيره؟ إن النير يعنى الخضوع. ولمن خضع هو؟ ليس لإنسان، ولا لإيحاءات الشيطان، بل لإرادة الآب.

فالراحة إذن هى أن تعيش فى إرادة الله. اطلب على الدوام أن تعرف هذه الإرادة فى كل حادثة، فى كل إحسان أو إساءة، فى كل خطواتك، فى كل صداقة جديدة، فى كل تأديب تسمح به العناية، وفى كل آية من الكتاب المقدس، وحالما تراها تقبلها. لا تنتظر حتى تفرض عليك فرضا كما يوضع النير على الثور الذى لم يتعوده والذى يجاهد للحال للتخلص منه حتى يحدث فى رقبته جرحا عميقا. بل اقبل النير. كن وديعا ومتواضعا، اقتد بالذى قال «الكأس التى أعطانى أبى ألا أشربها؟» إن اللغة التى تناسبنا فى هذا الموقف هى تلك العبارة البديعة التى تتجلى فيها البساطة مع السمو «نعم أيها الآب لأنه هكذا صارت المسرة أمامك».

زار شخص مرة مدرسة للأطفال الصم والبكم، وطلب منه إن يكتب سؤالا على السبورة. فكتب هذا السؤال «لماذا جعلكم الله صما وبكما بينما أنا أسمع وأتكلم؟» فاغرورقت أعينهم بالدموع، وبعد فترة وجيزة تقدم ولد صغير وأخذ الطباشيرة وكتب تحت السؤال هذه الآية «نعم أيها الآب لأنه هكذا صارت المسرة أمامك».

فإن كنت تستطيع أن تقول هذا، تكون قد تعلمت سر الراحة، ويكون شيلون قد أتاك فعلا، وتصبح واحدا من أولئك الذين يتجمعون إليه فى كل الأجيال المضنية ليشتركوا فى نصرته الكاملة وملكه المجيد وراحته الأبدية.



الوطن أخيرا (تك٥٠)

مـــــــــــا المـوت؟
هـو نوم لـلمـــشـــــقلـين
هو راحـــة لـلمــتـعـبين
هو حـــصن للمــضـطربين
هو ســـلام وسط الزوبـعـة
هو دخول للوطن بعد المعـمعة
هـو المـمـــــر لـلـه
الذى يـأمــر كل من اتـقــاه
أن يدخلوا راحـتـه المبتـغـاة

انون

وأخيرا دنت النهاية. نحن الآن واقفون مع أولئك الأبطال فى تلك الغرفة المزينة جدرانها بالنقوش والكتابات الهيروغليفية مع الاثنى عشر ابنا يسودهم سكون رهبة الموت، لنرى ذلك المتغرب المنحل القوى يلفظ نسماته الأخيرة. لقد كانت حياته جهادا عنيفا، ولم يكن طريقه مفروشا بالورود، بل بالأشواك، قليلة ورَدية كانت أيام سنى غربته، وإذا ما قيست حياته بالمقياس البشرى للنجاح والفشل، لا يمكن اعتبارها إلا فشلا بالمقارنة مع حياة عيسو المزدهرة. على أننا فى اللحظات الأخيرة التى تتوارى فيها هذه الحياة، نستطيع أن نلمح لمحات بسيطة عن تلك الرجولة الحقة التى كان الرب يكونها بعناية خاصة خلال سنوات الآلام والأحزان الطويلة، وإذ تبسط أمامنا تلك الحياة، نشعر بأنه كان هنالك ما يبرر كل تلك الآلام والأحزان.

خير ألف مرة أن تكون إسرائيل الأمير، ولو مقصى عن بلادك، من أن تكون عيسو الذى خرج منه ملوك عديدون. عندما توارى تيجان العظمة الأرضية فى التراب، فحينئذ تلمع تيجان الحياة الأبدية الروحية. وسيبقى اسم إسرائيل نورا للذين، مع شعورهم بالضعف، يجاهدون ليدركوا ذاك الذى من أجلهم أدركهم المسيح يسوع.

ونحن أيضا سوف يأتى اليوم الذى فيه نضطجع فى غرفة الموت يحيط بنا أحباؤنا. يجب أن تستعد نفوسنا لرحيلها الأخير، وتقف منتظرة على «الباب الجميل» لهيكل الحياة. وكما تعلمنا من يعقوب كيف نعيش، فلنتعلم منه أيضا كيف نموت. قال أحد أولاد الله لابنه وهو على فراش الموت «تعال يا ابنى وانظر كيف يموت المسيحى».

مثل هذه الدعوة تنادينا الآن، لأنه حتى نحن الذين نعيش فى نور الإنجيل الكامل، نستطيع أن نتعلم بعض الدروس عن ساعة الموت من شخص قد يبدو بأنه غير جدير بتعليمنا شيئا، ولكنه فى الواقع، فى اختبارات تأديب المحبة، يقود النفوس الأمينة فى وادى ظل الموت، ويخرج بها إلى أرض نور الأبدية.

ارتسمت ثلاثة مناظر أمام عينى ذلك البطل فى ساعة الموت الرهيبة: مدينة الله، تجمع أولاد الله، المغارة السحيقة فى أرض كنعان التى اضطجع فيها آباؤه والتى طالما زارها.

(١) مدينة الله:

يخبرنا الرسول بولس صراحة فى رسالة العبرانين أن يعقوب كان واحدا من الذين «ماتوا فى الإيمان». كان وارثا للموعد. لم تكن الأرض التى وعد بها إبراهيم واسحق قد انتقلت ملكيتها إليه بعد، إذ كانت لا تزال تحتلها تلك القبائل الرحالة التى كانت تنظر إلى انتقالاته ورحلاته بعين الريبة والشك. وكل ما كان يمتلكه هو ذلك الوعد الأكيد أن تلك الأرض سوف تصبح ملكا له فيما بعد عن طريق نسله. لعله فى أيام قوته كان يرجو أن يعيش حتى تنتقل إليه ملكية تلك الأرض بمراعيها وجبالها. انبعث هذا الحنين من قلبه، وانساب من بين شفتيه وبسط وصيته لأبنائه «لخلاصك انتظرت يارب» (ص٤٩:١٨).

ولكنه على مر السنين، إذ تكاثفت السحب فوق هذا الوعد، اضطر للاعتقاد بأنه سوف لا يعيش حتى يصبح سيدا لأرض كنعان. ورغم ذلك، تعلق جدا بذلك الوعد المبارك الذى طالما أعطى لإبراهيم، وهو أن الأرض ستصبح ملكا لشعبه. وكان وثوقه التام من أمانة الله لكلمته يشع عليه نورا قويا لم تستطع الشدائد أن تبدده حتى فى لحظة الموت.

إيه أيها الإيمان المجيد، الذى يحمل شعلة وسط وادى الحزن والدموع، ويحفظ القلب من الإعياء، حتى ينبثق نور الفجر لدى إتمام المواعيد. أى شىء يعجز الإيمان عن إتمامه لمن علمهم الله أن يتكلوا عليه. «إنما لله انتظرى يا نفسى لأن من قِبَلِهِ رجائى» (مز٦٢:٥).

وإذ اتضح ليعقوب أنه سوف لا يرث كنعان بشخصه، يظهر إنه قد ثبت أنظاره بتطلع زائد نحو السماء. وشعر أنه إن كان الله لم يسمح له بموضع راحة أرضى، فإنه قد أعد له مدينة أساساتها لم تضعها أيد بشرية، أسوارها لا تحمل أى أثر للصناعة البشرية، جوها لا يلوثه دخان الأرض أو غبارها.

لهذه المدينة المجيدة، مدينة القديسين، حنت الآن نفسه المتغربة. وكانت رؤية هذه المدينة هى التى مكنته من الاعتراف لفرعون بأنه غريب ونزيل على الأرض. والآن وقد دنا منها، ولم يبق بينه وبينها إلا قاب قوسين أو أدنى، فقد أنعش اقترابه منها روحه الهرمة، وجذبه إليها بشوق عظيم وخطوات سريعة.

يستخدم كاتب سفر العبرانيين استعاره بديعة، إذ يكتب عن يعقوب وسائر الآباء أنهم حيوا المواعيد من بعيد (عب١١:١٣). وعندما يعود المهاجر من أرض بعيدة، ويلقى أول نظرة - إذ يصعد على أحد الجبال فى الطريق - على وطنه الذى يكون لا يزال بعيدا، تنتعش روحه، ويخفق قلبه فرحا، ويبسط يديه شاكرا لله، ويحيى وطنه، مرحبا بمناظر الطفولة السعيدة. وموطن الشباب المبارك.

هكذا فعل يعقوب. فإنه اقترب من مدينة الله الثمينة جدا للقلوب المخلصة الأمينة، أظهر صلته الوثيقة بنفوس مختارى كل الأجيال والدهور، يبسط يديه المرتعشتين نحوها. وإذ نظر الله إلى هذا الموقف البهيج، موقف الإيمان القوى والرجاء والوطيد والرغبة الملتهبة، لم يستح أن يدعى له إلها.

اصطدم الجدال بين المفسرين العصريين حول مقدار ما تحققه أولئك القديسون الغابرون عن الحياة العتيدة. ولست أريد أن أزج بنفسى فى هذا النقاش. ولكننى أجد إجابة كافية لأسئلتهم فى قول الكتاب الذى يؤكد أن يعقوب ومن على شاكلته كانوا «يبتغون وطنا أفضل أى سماوياً» (عب١١:١٦). لم يكن المستقبل غامضاً لديهم للدرجة التى نظنها بعض الأحيان. فإنهم أيضاً وقفوا على رأس الفسجة وتطلعوا إلى أرض الموعد؛ ليست تلك التى تطلع إليها موسى البطل العظيم المحدودة بمياه البحر الأبيض المتوسط، بل التى لا ترى ظلمة

الليل ولا تكتسحها الزوابع والأنواء، وطن القديسين الحقيقى. على مثل هذا الجبل (الفسحة) وقف يعقوب. وبينما كانت كل المرئيات المادية - حتى وجه يوسف - تزداد غموضاً أمام عينيه الذابلتين كانت تلك المناظر البهيجة السماوية تزداد وضوحاً أمام بصيرته الروحية إذ كانت تومىء إليه.

قرائى الأعزاء! ما هو موقفكم إزاء مدينة الله هذه؟ لا تتوهموا بأنها سوف تشرق وتلمع أمام أنظاركم ساعة الموت إن لم تكن هى موضع تفكيركم المستمر أيام صحتكم وقوتكم. يجب أن يكون موطنكم الآن فى السماء، وسيرتكم فى السماء. إن كنتم تريدونها أن تكون لكم وطنا أخيراً. هل هذا هو الحال معكم؟ هل تقنعون بالسكن فى خيام غير متعلقين أو متشبثين بهذا المنظر العابر السريع الزوال. ومعترفين بأنكم غرباء ونزلاء على الأرض لأنكم متطلعون إلى المدينة؟ هل تشعرون بجاذبية تلك المدينة لكم كما يفعل البحار إذ يجذب المرساة التى تحفظه من الانجراف فى التيار؟ هل ترونها الآن مقدماً؟ إن كان الأمر كذلك، فإنها سوف تبهج أنظاركم، وتنعش نفوسكم. ساعة الموت، سوف ترونها نازلة من السماء من عند الله كما يرى ركاب السفينة أن الشاطىء هو الذى يقترب من السفينة كلما اقتربت هى إليه. سوف تنالون البركة التى أكدها المخلص الحى لمن يغسلون ثيابهم، وهى حق الدخول من الأبواب إلى المدينة (رؤ٢٢:١٤).

(٢) تجمع العشيرة وانضمامهم بعضهم إلى بعض:

«أنا أنضم إلى قومى». عندما قال هذا، كان يعنى شيئاً أكثر من انضمام جثته - التى سوف تعود إلى التراب - إلى جثث آبائه وأجداده. هذه الفكرة - الناحية الجسدية - يعبر عنها بالجملة التالية «ادفنونى عند آبائى». لقد كان يعنى شيئاً أكثر. يقينا أنه نظر إلى تلك المدينة كمكان اجتماع كل شعبه. كالعاصمة التى تضم جميع المؤمنين الحقيقين ذوى القلوب الطاهرة. كملتقى كل الذين كانوا شعباً له لأنهم كانوا شعب الله. يا له من فرق شاسع بين هذه النظرة التى نظر بها يعقوب إلى السماء، وتلك التى ينظر بها الكثيرون من المسيحيين اليوم. كثيراً ما سمعنا هذه الأسئلة التى يقدمها البعض بكآبة وحزن «ماذا تظنون فى حالة المنتقلين فى الفترة بين الموت ويوم الدينونة»، «هل سنشعر بالسعادة منذ اللحظة التى نسلم فيها الروح»، «هل سنعرف بعضنا بعضا فى الحياة الأخرى». هذه مع الأسف تتناقض مع تلك الكلمات التى فاه بها يعقوب عند الموت «أنا أنضم إلى قومى».

كيف تكون حالة المنتقلين فى الفترة بين الموت ويوم الدينونة؟ على وجه التحقيق «نحن لا نعرف ماذا ستكون». ولا نستطيع أن نخترق الحجاب الذى ينفتح لدخول الروح فقط. وواضح أن أرواحنا سوف لا تصل إلى ملء السعادة والكمال قبل يوم القيامة الذى فيه تعود الروح إلى الاتحاد بالجسد، وواضح أيضا أن المؤمنين سوف لا يكونون فاقدى الإدراك والشعور، بل يدخلون إلى حضرة الرب.

هذا ما علمه أبانا المسيح نفسه إذ نطق بهذه الكلمات المقتبسة من العهد القديم «أنا إله إبراهيم واسحق ويعقوب». وعلق عليها قائلا: «ليس الله إله أموات بل إله أحياء». قيلت تلك الكلمات بعد رقاد يعقوب بسنوات طويلة ومع ذلك، تحدث الله عن نفسه كإله يعقوب. وحيث أن الله لا يمكن أن يكون إله جثث هامدة، أو إلها لروح فاقدة الشعور، فلابد أن يكون يعقوب والباقون أحياء، نعم كانوا أحياء وقت النطق بهذه الكلمات. ولا زالوا أحياء. لهم نفس تلك الحياة النشيطة المنيرة بعينها التى جعلتهم فى الصورة التى عاشوا بها هنا.

وفى العهد الجديد، لا نرى لبسا ولا إبهاما فى هذه الناحية. فإنه حالما تفك الخيمة ندخل ذلك البيت الأبدى (٢كو٥:٢). وعندما يتغرب المؤمن عن الجسد يستوطن عند الرب. «الموت ربح». وهذا أمر مستحيل إن لم تنل الروح من المسيح أكثر مما تناله فى هذا الشاطىء من المدينة الذهبية (أى فى هذه الحياة) (فى١:٢١). واستفانوس، لدى موته، ذهب مباشرة إلى يدى ربه (أع٧:٥٩).

فلا تربكوا أنفسكم بأسئلة عديمة الجدوى. يكفى أن تعرفوا أن الموت ليس حالة بل حدث يحدث، ليس هو موضع راحة بل هو تحول وانتقال، هو ممر، ولادة، هو عبور قنطرة التنهدات من السجن إلى القصر.

الموت حــــــيـــــــاة أخــــــرى
فـــــنــحــــن إن نـــحـــنــى الـــرأس
ندخل مـبـاشـرة حجـرة ملكـية ذهبـيـة أخرى
أعظـم اتسـاعـــا من هذه الـتى نتــركـــهـــا
وأعـظم بـهـــجــــة وحـــبـــبـــورا

وكيف نعرف المنتقلين؟ لم يكن ممكنا أن يتنبأ يعقوب بانضمامه إلى قومه لو لم يكن واثقا من أنه سيعرفهم عند التمتع بشركتهم المباركة. عندما كان اليهودى يفكر فى العالم غير المنظور، كان يتوقع لقاء القديسين الذين تعود أن يسمع عنهم منذ الطفولة خصوصا إبراهيم.

ألم يكن اليهودى أحكم من كثيرين من المسيحيين؟ هل للجسد قوة الإدراك والتمييز أما الروح فليست لها هذه القوة؟ هل يعقل أن المحبة التى كونت الحياة ستتجول فى الأبدية بلا هدى، دون أن تهتدى إلى الأحباء الذين ارتبطت بهم؟ وهل يليق بالبيت الذى لا يعرف فيه الإخوة والأخوات بعضهم بعضا أن يدعى بيت الآب؟

على أن هذه الأسئلة أمكن على الدوام إيجاد حل لها - لى أنا شخصيا على الأقل - بدراسة دقيقة للحقائق المتعلقة بجسد المسيح المقام من بين الأموات، ذلك الذى سوف نتغير على صورته (فى٣:٢١). والذين عرفوه قبل موته أمكن أن يعرفوه بعد موته. وصوته كان فيه نبرات مألوفة لمن أحبوه (يو٢٠:١٦). ولقد كان ما رآه التلميذان من نفس طباعه الأولى وعاداته وحديثه كافيا ليعرفهما بشخصه (لو٢٤:٣١) ونفس ما حصل معه سيحصل معنا نحن أيضا ومع أحبائنا.

سننضم إلى قومنا. إن الموت سوف لا يدفعنا إلى بالوعة اليأس، ولا إلى جماعة كريهة، بل إلى مجتمع عظيم من المحبين والأصدقاء، الذين سوف ينشدون كلمات حالما ندخل ملكوت ربنا الأبدى (٢بط١:١١).

إن نفوس المختارين من كل الأجيال تتجمع هناك. هل هم قومنا؟ هل نستطيع الاعتراف بقرابتنا لهم؟ هنالك رباط واحد يربطنا بهم كما تعلمنا رسالة العبرانيين فى (ص١١). ليس هذا الرباط المعرفة أو أعمال البطولة، بل هو رباط الإيمان - الإيمان الذى يمكن أن يوجد فى الصعلوك كما فى أعظم الملوك، فى أعظم فيلسوف. إنه لا يتوقف على السن أو الجنس أو المعرفة أو الأعمال، حيثما وجد، جعل صاحبه واحدا ممن يستطيعون أن يدعوا القرابة للقديسين سكان مدينة الله. إن المحك الذى به يعرف استحقاقنا لأورشليم الجديدة هو هذا «هل تؤمن باسم ابن الله الوحيد؟»

(٣) مغارة المكفيلة:

«ادفنونى عند آبائى فى المغارة التى فى حقل عفرون الحثى». لقد عاش فى مصر سبعة عشر عاما متمتعا بكل ما يمكن أن توفره له محبة وأريحية يوسف من نعم وخيرات. ولابد أنه قد ألف هياكل مصر العظيمة ومسلاتها وأهرامها، التى لا يمكن أن تذكر بجانبها تلك المغارة مطلقا. ولكنه لم يشأ أن يدفن فى إحداها. بل طلب أن يدفن حيث يضطجع إبراهيم وسارة، اسحق ورفقة، وليئة الأمينة، على رجاء قيامة الأموات.

كان الباعث على هذا شيئًا أكثر من الشعور الطبيعى الذى يدفعنا أن نطلب بأن ندفع فى مكان هادىء فى أرض الله حيث نقش اسم عائلتنا على كثير من القبور هناك. لقد شعر أن مغارة المكفيلة هى أول رهينة فى تلك الأرض التى لابد أن تصبح يوما ما ملكا لشعبه. ولذا أراد - طالما كان ذلك فى استطاعته - أن يبقى هناك معهم، وأن يكون له نصيب فى أرض الموعد.

وبعد نطقه بالكلمة الأخيرة، وتقديم النصحية الأخيرة عرف أن النهاية دنت. «ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه ضم رجليه إلى السرير» أى قابل الموت بهدوء وطمأنينه ورجولة. لم يؤخذ إليه عنوة كمجرم، بل ذهب هو لملاقاته بارتياح وسرور. إن للموت وجها عابسا ورداء أسود، ولكنه أتى ليحمله إلى وطنه. وبكل هدوء وثبات «أسلم الروح وانضم إلى قومه». وفى تلك اللحظة ولت الإدبار إلى الأبد تلك الأحزان والتنهدات والآلام التى كانت حليفة له كل أيام حياته.

يا له من وجه هادئ مشرق إذ ثبته فى صحيفة الموت. لقد انقشعت عنه هيئة يعقوب، وطبعت عليه تلك الابتسامة التى طبعتها عليه روح إسرائيل.

إذن، فلا عجب إن «وقع يوسف على وجه أبيه وبكى عليه وقبله». لقد تجلد على قدر استطاعته، أما الآن، فإن الطبيعة يجب أن تسكب نفسها فى أحزانها البنوية.

ثم حنط الجسد بعناية وافرة. لم يدخر وقتا أو جهدا أو مالا حتى أنفق. وحزنت مصر نفسها عليه سبعين يوما. ثم سار موكب الجنازة بفخامة لم يشهدها موكب واحد من القديسين أو الفلاسفة أو الأبطال، يحمل النعش من مصر إلى كنعان. واشترك حكام مصر ومشيروها، أمراؤها وكهنتها، مع رعاة أرض جوسان فى تشييع الجنازة. وكانت علامات الحزن بالغة أقصاها حتى أثرت على سكان الأرض (الكنعانيين) أيما تأثير.

دحرج الحجر وألقيت الجثة فى مكانها المعين، والمرجح جدا أنها لا تزال باقية إلى الآن فى حالة سليمة جدا. وكم من غزوات اكتسحت تلك البلاد وسار الجنود فى ذلك المكان، الأشوريون والمصريون والبابليون والرومان والعرب. ولم تمتد يد لإزعاج راحة تلك الجثة المباركة. ولكنها باقية هناك سليمة.

إذن، فاسترح، ونم مطمئنا، يا إسرائيل الأمير.



إله يعقوب (مز٤٦)

حب الرب إلهك
من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك
واحفظ وصاياه من كل قدرتك
وانزع من قلبك كل محبة غريبة
يحاول بها العالم أن يطمس بصيرتك
وأن يحرك فيك الشهوات الدنيئة
وقدس نفسك بالتمام
لمن قدس نفسه من أجلك

سبسر

جميل جدا أن نبحث فى الكتاب المقدس لنعرف كم مرة يدعو الله نفسها فيها «إله يعقوب». ويظهر أنه يجد لذة خاصة فى ذلك القلب الذى يعتبره حلقة اتصال بين طبيعته الإلهية المقدسة وبين شخص كان بطبيعته من أحط الأشخاص أخلاقيا ولم يكن هنالك أى أمل بأن يصير قديسا. ولو أنه دعا نفسه «إله إسرائيل» الأمير لما وجد فى الأمر غرابة، أما أن يعود ويدعو نفسه مرارا «إله يعقوب» ففى ذلك كل الغرابة، كما أن فيه كل التأكيد بأنه لا يزال إلهه.

ونحن إذ نلاحظ تكرار هذا اللقب، خصوصا فى مزامير داود، وفى نبوة إشعياء، نتعلم هذا الدرس الثمين، وهو أن الله لم يتغير منذ أمسك بيد يعقوب، وأن شعوره الآن نحو أمثال

تلك الشخصية لا يزال مستعدا أن يصنع نفس ما فعله يعقوب، لكل من يشعرون بضعف طبيعتهم كيعقوب ويقبلون أن يسلموا أنفسهم فى يديه المباركتين اللتين تمتدان من السماء إلى الأرض لكى تصوغا البشر فى قالب جديد.

لا شك فى أن الله يريد أن يعمل نفس ما عمله بيعقوب لكل الذين يقرأون هذه الكلمات أو أرادوا. وكل ما أريده فى توسلى الأخير هذا، أن أحث قرائى ليسمحوا له بإتمام عمله المبارك فيهم. عند دراستنا الماضية لحياة يعقوب وأخلاقه، ألم تشعر بوجود بعض الشبه بينك وبينه أيها القارىء العزيز؟ قد تكون أنت أيضا ماكرا ومخاتلا ومخادعا، أو قد تكون حاد الطبع لا تستطيع أن تضبط نفسك، أو قد تكون منكوبا ببعض الأميال غير الظاهرة التى تعطل طبيعتك الأفضل، أو قد تكون مستعبداً لخطية معينة بصفة مستمرة، فإن سلمت نفسك الآن لإله يعقوب القدير لما بقى هذا حالك لحظة واحدة بعد.

بجانب إحدى الكنائس فى أحد الأحياء الفقيرة المتواضعة جدا، كان يقطن شخص مسيحى. وفى إحدى الليالى، بينما كان يدعو المارة للدخول إلى الخدمة التى كانت على وشك الابتداء قال أحدهم، وكان فى فقر مدقع، «ولكن سترتى رثة بالية». فأجابه الداعى قائلا «هذا لا يهم مطلقا فإن بالكنيسة شخصا بدون سترة قط». فكانت هذه الإجابة كافية لإزالة كل ما بقى من تردد، ودخل.

معذرة أيها القارىء العزيز لبساطة هذا المثل الذى قصدت به أن أؤكد الحقيقة التى نحن بصددها لجميع من يتوهمون أن طبيعتهم قد تسفلت جدا، وعاداتهم الرديئة قد تأصلت لدرجة أنهم أصبحوا يائسين من أن يأملوا فى حياة القداسة. أيها العزيز، إن حياتك لم تصل بعد إلى حد اليأس. لأنه إن كان الله استطاع أن يجعل من يعقوب أميرا، فإنه يستطيع أن يفعل ذلك بأى شخص. ومهما وصلت بك الحالة، فلعلك لم تصل بعد إلى ما وصل إليه يعقوب فى بدء حياته. والله الذى كان غنيا فى الرحمة معه، لا يزال مستعدا أن يكون غنيا فى الرحمة لجميع الذين يدعونه بالحق.

(١) اغرس فى قلبك طمعا مقدسا:

لا يوجد ميل داخل القلب غير المتجدد أخبث أو أخطر من الطمع. فهذه الخطية

أسقطت ملائكة. ومع ذلك، فإنه إذا هذبت العاطفة وكبح جماحها، لعبت دورا نافعا كباقى العواطف فى الحياة البشرية. إنها لعلامة سيئة إن وجد فتى أو رجل ليست له رغبة أو طموح نحو تحسين مركزه. والأرجح جدا أنه يبقى دواما ملقى مع الرعاع فى أسفل الجبل دون أن يجد الرغبة أو القوة على أن يتحرك من مكانه. لهذا يحسن أن نغرس فى داخلنا طمعا مقدسا يخلق فى قلوبنا الرغبة للوصول إلى المقياس الكامل الذى يريده الله منا، والوصول إلى كل الإمكانيات التى فى استطاعة الإيمان، ولكى ندرك ذاك الذى من أجله أدركنا المسيح يسوع.

هذا الطمع هو الذى أنار قلب الرسول عندما قال «ليس أنى قد نلت أو صرت كاملا، ولكنى أسعى لعلى أدرك الذى من أجله أدركنى أيضا المسيح يسوع .. أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام. أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا فى المسيح يسوع» (فى٣:١٢-١٤). ألا يكفى ذلك لكى يحركك؟ لا تكتف بأن تكون يعقوب على الدوام. لا تخنع فى العبودية تحت سلطان ظالميك المستبدين. لا تتوهم بأنك لا يمكن أن تكون إلا كما كنت. السهام دونك فصاعدا، فاسع إليها. هذا الطمع المقدس تحركه بل تخلقه فينا دراسة سير القديسين. فى كل مرة تقرأ أو تسمع عن نعمة الله التى عظمها فى حياة أى واحد من أولاده المباركين اشكره. واتخذ لنفسك مثلا أعلى. وتوسل إليه أن يعظم نعمته معك أنت أيضا. على أنه لا توجد وسيلة أخرى أكثر تأثيرا فى إشعال هذه الشعلة المباركة من دراسة الكتاب المقدس بتعمق. فى كل فقرة من فقراته، نستطيع أن نجد الباب مفتوحا على مصراعيه، يدلنا عما نستطيع الوصول إليه فى الحياة المسيحية. ربما تسبب كثرة مطالعة أو سماع فقرة أو آية معينة، فَقْد رونقها وزوال بهجتها، وتصبح فى نظرنا كالعملة التى بريت من كثرة الاستعمال. ولكننا إن سمحنا للروح القدس أن يعيد سك تلك العملة، وجدنا العجب. وإذ تتكشف لنا تلك المثل العليا التى فى فكر الله، الواحد تلو الآخر، فلنتوسل إليه أن يكمل فينا «مسرة الصلاح وعمل الإيمان بقوة» (٢تس١:١١).

وفى كل مرة تقلب صفحة من الكتاب المقدس، فلينقش هذا على قلبك نقشا عميقا – إن كل وعد هو لك، وإن الله قادر أن يفعل أكثر جدا مما تطلب أو تفتكر. ثم تطلع إليه واطلب منه أن يفعل كما قال.

(٢) سلم لله تسليما كاملا:

قبل أن يبدأ الرب عمله المبارك فى النفس البشرية، ينبغى أن يسلم ليديه مفتاح كل غرفة، وخزانة، فى النفس. كل ناحية فى الحياة ينبغى أن تخضع لسلطانه. يجب أن لا يحجز شىء أو يمنع عنه شىء. فإن حجز شىء واحد - مهما صغر - يعطل العملية بأكملها، ويترك ثغرة لمحبة الذات تبسط نفوذها منها على الحياة بأكملها.

من ذا الذى يرتضى أن يسكن منزلا كان موبوءا بمرض معد حديثا قبل أن يفتح كل غرفة فيه لعمال الإدارة الصحية؟ ومن ذا الذى يقدم استشارة مالية لصديق واقع فى ارتباطات مالية قبل أن يكشف له كل دفاتره؟ ومن ذا الذى يقدم استشارة طبية ما لم يذكر المريض كل أعراض المرض ويكف عن كل وسائل العلاج الأخرى؟ هكذا الله لا يبدأ بعلاج أى واحد من أولاده قبل أن يسلم نفسه إليه تسليما كاملا.

فى إحدى المرات، كنت مارا فى شارع من أحقر الشوارع فى مدينة ليستر، ولاحظت إعلانا معلقا على نافذة حانوت متهدم كانت الحركة التجارية فيه تسير من سىء إلى أسوأ. كان مضمون هذا الإعلان كالآتى «سيفتح هذا الحانوت قريبا تحت إدارة جديدة». وإذ وقفت هناك برهة، خيل إلى أن كل البناء يبتسم ابتسامة الأمل والرجاء، كأنه يقول «إنى مغتبط كل الاغتباط لأنى سأوضع كلية تحت إدارة جديدة». وبعد بضعة أيام، بينما كنت مارا فى نفس الطريق، رأيت العمال يعملون بهمة فى تنظيف المكان وتجديده. وفى مرة ثالثة رأيت الحانوت قد تبدلت كل معالمه وأصبح تغيير الإدارة واضحا كل الوضوح لأنه لبس ثوبا جديدا قشيبا يجذب إليه الأنظار.

هذا هو نفس ما تحتاجه يا من لا زلت تحمل طبيعة يعقوب. لقد كنت إلى الآن تحاول أن تدبر أمور نفسك بنفسك. والمطلوب هو تغيير الإدارة تغييرا كليا. يجب أن لا تترك فى نفسك شيئا قط. يجب أن يسلم كل شىء بالتمام لإله يعقوب الذى جعله المرنم له ملجأ، والقادر أن يستلم النفوس المفلسة ويجعلها وارثة لله ووارثة مع المسيح. فلماذا لا تسمح بأن يكون هذا التسليم الآن؟

إن الأمثلة تزحم قلمى، محاولة أن أدونها هنا فى هذه المناسبة، أوضح بها طرفا يسيرا

عن الذين قد نالوا البركات الوفيرة التى لا يعبر عنها إلا عن طريق تسليم الحياة لله تسليما كاملا ولو كان طريقا ضيقا. ولكننى أمسك القلم عن ذكرها، مكتفيا بمجرد الإشارة إلى الطريق، وتاركا الحرية لجميع من يريدون الدخول إلى الأرض الذهبية.

من المحتمل جدا، عندما تصل إلى نقطة تسليم النفس، أن تجد بعض أشياء فى داخلك تحاول إقناعك بأنه من العسير جدا أن تنتقل إدارتها من يدك إلى يد الرب يسوع المسيح. وعندئذ تجد فى نفسك الميل إلى إبقائها تحت إداراتك. لأنك تخشى أن يسبب لك التغيير الذى يحدثه فيك الكثير من الآلام إذ يكتسح أمامه الكثير من العوامل المعطلة. لهذا فإنك تقف خائفا كالولد الذى يقف على شاطىء البحر واجما قبل أن يلقى بنفسه وسط الأمواج المتلاطمة. ولكن هذه المخاوف لا تتفق مع ثقتنا فى سيدنا الممتلىء لطفا ومحبة، فهو لا ينتزع منا شيئا يعلم أن فى بقائه خيرا لنا، وهو لا يبتر عضوا قبل استعمال المخدر الذى يسكن الألم دون أن يضر بالصحة، وهو لن يسمح لنا بأقل ألم كان ممكنا أن يعفينا منه.

لا تخشى من تسليم كل شىء لإرادة الله الصالحة المحبة لأن الله محبة، ولأنه لا يقصف قصبة مرضوضة ولا يطفىء فتيلة مدخنة. إن قال لك ابنك الصغير «إننى أسلم كل حياتى وأتركها لتدبيرك أنت فافعل كل ما تريده» فهل يخطر ببالك أن تعمل ما يضره؟ ألا تغتبط بتلك الفرصة التى استلمت فيها حياته بعد أن كان سائرا فى طريق تؤذيه؟ ألا تغتبط بكل فرصة تنتهزها لتملأه بالسعادة والمسرات التى لم يكن ممكنا له أن يحققها لنفسه؟ هكذا يفعل لك أبوك السماوى أكثر من تلك. وكل ما عليك هو أن تأتمنه على كل شىء.

إن كان فى حياتك ما يعسر عليك التخلى عنه، عزيز كالعين اليمنى، أو اليد، أو الرجل، متوهما أن فيه سعادتك وسعادة الآخرين، فقل لله إنك تسلمه له، وإنك تريد أن تتمم إرادته، فى الوقت الذى يراه صالحا، وبالطريقة التى يراها هو مناسبة: وإن لم تستطع أن تقول هذا فقل له أنك تريد أن يخلق فيك الإرادة، أخضع له إرادتك، ولو كانت تبدو لك أنها كحديد بارد، واثقا أنه يستطيع أن يلينها ويصيغها فى الشكل الذى يبتغيه.

جـــدد إرادتـى يومـــا فـــيـــومـــا
وخذهـــــا فـــــى إرادتـــــك
وانتزع منى كل ما يعوقنى عن أن أقول
لـتكـن مـــشـــيـــئـــتـــك

وهنالك طريقة أسمى، وهى فى مقدور أضعف الضعفاء. هى أن تطلب من الرب الدخول إلى عمق حياتك ليأخذ ما تعجز عن أن تعطى. وكل ما هو مطلوب منك أن تحرص عليه هو أن ترتضى بأن يأخذ كل شىء. إن ضمنت هذا، فإن الباقى يتكفل به هو. وفى اللحظة التى تعلن فيها إرادتك يفتح لك الباب، وللحال يستلم كل شىء.

(٣) احذر من أن تعطل عمل الله الصالح:

لا شك فى أننا - من نواح كثيرة - لا نستطيع أن نقاوم أو نعطل إرادة الله المطلقة. فهو «يفعل كما يشاء فى جند السماء وسكان الأرض. ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل» (دا٤:٣٥). على أننا من الناحية الأخرى نستطيع أن نعطل مقاصده الصالحة «يا أورشليم كم مرة أردت. ولم تريدوا». فلنحذر كل الحذر من هذه المقاومة الخطرة، ولنكن مستعدين على الدوام لإتمام ما يعمله الله فينا «أن نريد وأن نعمل».

صدر الأمر مرة لإرميا النبى لينزل إلى بيت الفخارى (إر١٨) حيث كان «يصنع عملا على الدولاب».. وإذ وقف ليراقب خفة يد الصانع ومهارته الفائقة فى صنع الإناء، لم يكن لديه بطبيعة الحال فكرة عن شكل الإناء الذى كان يقصده الصانع، ولو كان يقصد أن يصوغه لغرض نبيل بقصد استعماله فى قصور الملوك. وخلال دوران عجلة الدولاب السريع، بدأ شكل الإناء يتبين، وبدأ قصد الصانع يظهر. وبغتة صرخ الصانع صرخة الخيبة والفشل، ورفع الطين من الدولاب «وفسد الوعاء الذى كان يصنعه». لماذا؟ هل لأن الفخارى كانت تعوزه الحكمة؟ كلا، بل لأن الطين أبى أن يتشكل حسب قصده. إذن، فقد تعطل عمله على الدولاب، واضطر أن يصنع من ذلك الطين وعاء أقل مرتبة من ذلك المثال الذى كان يقصده. كان ممكنا أن يستخدم فى قصور الملوك أو فى خدمة الهيكل، أما الآن فقد صنع لقصد أدنى ليستعمل فى بيوت الفقراء. كان بنو إسرائيل هم المقصودون بالذات من هذا المثل، ومع ذلك فإنه نافع لنا نحن أيضا.

ألا يمكننا القول - مع استعمال لغة البشر - إن الله عندما خلقنا خلقة جديدة فى المسيح يسوع كان واضعا نصب عينيه مثالا ساميا نعيش حسب صورته؟ ولو أننا فقط سلمنا أنفسنا له تسليما كاملا لظهر هذا المثال فى اختباراتنا منذ زمن طويل، ولكننا للأسف

لم نجعل حياتنا مرنة فى يديه على الدوام، لم نطع كل ما كان يمليه علينا الروح القدس، بل أطفأناه وأحزناه. ونحن اليوم بعيدون كل البعد عما كان يمكننا الوصول إليه، وعما قصده الله لنا. ألا يليق بأن نعترف بذلك بدموع وخجل؟ ألا يليق بأن نأخذ معنا كلاما ونرجع إليه قائلين «نحن الطين وأنت جابلنا وكلنا عمل يديك. لا تسخط كل السخط» (هو١٤:٢، إش٦٤:٨و٩). وإن طهر أحد نفسه من الخطايا التى قد عطلت صنعة الله «يكون إناء للكرامة مقدسا نافعا للسيد مستعدا لكل عمل صالح» (٢تى٢:٢١).

إننى لا أنكر أن الله يستطيع أن يكمل مقاصده فينا حتى ولو عطلناها نحن. ولكنها تتم - كما حصل فى حالة يعقوب - بنفقة عظيمة وآلام شديدة وخلع فخذ قوتنا. لابد من حمل النير، وتمهيد الأخاديد. وإن جمح الثور غير المتمرن، فإن جهاده العنيف يؤذى رقبته، وبعد ذلك لابد من إذلاله. إذن، فخير لنا على الدوام أن نقبل النير الذى تعينه لنا العناية الإلهية ويقدمه لنا الرب، ونقبله باعتباره نيره «احملوا نيرى» ولنتذكر أن النير يوضع على اثنين، فإن الرب يضع نفسه بجوارنا، ويسير معنا خطوة خطوة، ويعمل معنا ما عمله مرة سمعان القيروانى مع يسوع فى الطريق إلى الجلجثة.

(٤) اطلب ملء الروح القدس:

كان الروح القدس يحل فى العهد القديم، كما تشرق الشمس على أعلى قمم جبال الألب بأشعتها الذهبية، قبل أن تسطع بنورها الكامل على الأودية، أما فى العهد الجديد المبارك، فإن الروح القدس يعطى، لا للقديسين والأنبياء فقط، بل للجميع، للأبناء والبنات، للشيوخ والأطفال، للعبيد والإماء «لأن الموعد هو لكم ولأولادكم ولكل الذين على بعد كل من يدعوه الرب إلهنا» (أع٢:٣٩). ونحن لا يمكن أن ننتظر الوصول إلى ذلك المثال الملكى - حياة «إسرائيل» - إلا بعد الحصول على هذه الموهبة المباركة فى مثلها، هذا الروح المبارك هو روح الابن، وإن أردنا أن تكون لنا طبيعته، وجب أن يكون لنا روحه، لا بقطرات، بل بأنهار، لا بمجرد نسيم خفيف، بل «كما من هبوب ريح عاصفة».

هذا هو أحوج ما تحتاجه كنيسة المسيح اليوم؟ كثر بيننا العلم والفصاحة والمدنية

والثروة والعمارات الشاهقة والماكينات الجبارة. ومع ذلك، فنحن ضعفاء لعدم وجود القوة التى لا يمكن الحصول عليها إلا بملء الروح القدس. ما الفائدة من مجموعة من العربات الفخمة جدا فى قطار السكة الحديد بدون القاطرة بقوتها؟ لقد تغافلنا ونسينا جدا تلك النصيحة القائلة «امتلئوا من الروح». لقد توهمنا أن ملء الروح خُصَّ به العصر الرسولى دون كل الأجيال. ولذلك أصبح معظم المسيحيين يجهلون قوة يوم الخمسين. ونحن لن نستطيع الحصول على تلك الموهبة إلا بالرجوع إلى ما فعله الرسل. ليت الرب يقيم فى هذه الأيام الأخيرة بعض الألسنة النارية لكى تعيد إلى الكنيسة قوة وبهجة تلك الموهبة.

وفى نفس الوقت اطلب هذا الملء. إنه لا يُعطَى إلا بعد أن يُخلَى القلب. وحالما امتلأ القلب بواسطة التسليم الكامل، يمتلىء للوقت بالروح القدس استجابة للرغبة الحارة والإيمان القوى. لأن الروح القدس يريد أن يملأ القلب البشرى، مشابها بذلك الهواء الذى يريد على الدوام الدخول إلى بيوتنا من كل نافذة، بل من كل ثقب، لا تنتظر حتى تشعر بالملء. بل ثق بأنك قد نلت الملء إن كنت قد أفرغت له مكانا، ويتقدم العمل بقوته الشديدة. بذلك تصبح «إسرائيل»، وتقتدر مع الله والإنسان.

هذه الكلمات تنطبق بطبيعة الحال فقط على من قد تبرروا بالإيمان وأصبحوا أولاد الله. إن كان هنالك أحد غير واثق من ذلك للآن، فليسلم نفسه تسليما كاملا لابن الله لكى يخلص بحياته وموته. هذه هى الخطوة الأولى الرئيسية نحو الحياة الملكية. وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون باسمه» (يو١:١٢).

ليست الحياة ألعوبة طفل لمن يريدون الوصول إلى مقاصد الله، ويبتغون أن يتمم فيهم مثله العليا. ولكن لنعلم بأننا طالما كنا خاضعين لناموس الله، فنحن فى طريق الله. وعندما ينتهى التأديب، سوف نقتنع كل الاقتناع بالنتيجة، ونقف وسط سائر الأمراء والملوك نقدم سبحا أبديا للذى أحبنا رغم نجاستنا، وغسلنا من خطايانا بدمه، وجعلنا ملوكا لله أبيه بعد أن كنا «يعقوب» (رؤ١:٥).



فهرست

الموضوع	صفحة
مقدمة المؤلف	٥
مقدمة المعرب	٦
الفصل الأول : المؤثرات الأولى	٧
الفصل الثانى : بيع البكورية	١٦
الفصل الثالث : البركة المغتصبة	٢٦
الفصل الرابع : السلم الملائكى	٣٦
الفصل الخامس : العزم النبيل	٤٥
الفصل السادس : التربية العائلية	٥٤
الفصل السابع : زهرة العمر	٦٢
الفصل الثامن : تحريك العش	٧٠
الفصل التاسع : صراع نصف الليل	٧٨
الفصل العاشر : فشل	٨٨
الفصل الحادى عشر : عودة إلى بيت إيل	٩٧
الفصل الثانى عشر : مدرسة الأحزان	١٠٤
الفصل الثالث عشر : مظاهر الطبيعة الإسرائيلية	١١٣
الفصل الرابع عشر : الراحة ومانح الراحة	١٢١
الفصل الخامس عشر : الوطن أخيرا	١٢٩
الفصل السادس عشر : إله يعقوب	١٣٦

مكتبة المحبة

٣٠ شارع شبرا - القاهرة
ت: ٥٧٨٢٩٣٢ - ٥٧٥٩٢٤٤ فاكس: ٥٧٧٧٤٤٨